
ساحر الكتب
www.sa7eralkutub.com
وائل ردّاد
سأعطيك الحلوى
شرط أن تموت
رواية
شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

سأعطيك الحلوى شرط

أن تموت!

وائل رداد

سأعطيك الحلوى شرط أن تموت



إهداء

To The Wishes





مدخل

أفاق «دكاك» أخيراً من نومه الذي زاره متأخراً... فَدَعَكَ جبينه، قبل أن يمرر أنامله بين خصلات شعره الفحمي الثائر والطويل...

كان نوماً بلا أحلام لحسن حظه!

رفع بصره المتثاقل ليتفحص حال والده، فوجده لا يزال يغطّ في سبات عميق على سرير طبي متهالك متقشر القضبان، وقد تم إدخال محلول «الغلوكوز» الشفاف إلى أوردته....

على مر الأسابيع الثلاثة الماضية ظل والده يتقيأ كل ما يُقدم إليه من طعام، فاستعاضوا عنه بمحلول التغذية. لا أحد إلى جانبه سوى «دكاك»، حيث يفترش الأرضية أمام سريره كل ليلة، جالباً معه رواية للمطالعة. وأثناء ذلك لا بد من أن يفيق والده ليقول بنبرة متهالكة متخاذلة:

- «الحمام! أريد الذهاب إلى....»

فيقفل «دكاك» روايته التي تستعرض واحدةً من مغامرات المحامي الأريب «بيري مايسون» على صفحة مثنية الطرف، ويقوم باصطحابه إلى حمام الغرفة التي يشاركه فيها مريض في غيبوبة دائمة....

فيما بعد، صارت حركة ساق والده أكثر تخاذلاً، فألبسوه حفاضة شبيهة بتلك التي للصغار لكن بقياس أوسع طبعاً، وأوصلوا مجرى بوله بأنبوب ثُبّت به كيس، حيث يحضر كل يوم ممرض أو ممرضة لتبديلهما، والإشراف على حالة الضغط والسكري لديه....

بالطبع غادر عدد من جيران والده المرضى غرفهم. حظّهم كان حسناً لدرجة اللحاق بأعياد ميلادهم قبل أن يباغتهم منجل الموت. في المستشفى ما إن يحل يوم ميلاد مريض حتى تصير أمنيته متوقّعة، فهو لن يتمنى أن يطير مثلاً، أو ينال ثروة بملايين الدولارات!

هكذا خرج عشرات المرضى المحكوم عليهم بالموت، وقد كُتبت لهم حياة جديدة عقب تمنّيهم ذلك في أيام مولدهم. وكلما خرج واحد صفقت له مجموعات من الممرضين والممرضات فرحاً... أولئك الذين كانوا لليالٍ يشرفون على أدويتهم ووضعياتهم المتخشبة فوق الأسرّة، في حين يظل الأطباء على الدوام يرمقون تلك المعجزات بأعين شاخصة!



المصري التعس صاحب الفلك الذي نهشه السرطان لم يكن محظوظاً، فيوم ميلاده كان بعد حوالى شهر، وقد ظلت زوجته الوفية المنقّبة تبكيه ساعات وساعات عقب وفاته. لسوء الحظ مرّ يوم ميلادها مرور الكرام قبل حادثة الضوء البنفسجي الساطع، والآن لم تعد راغبة في أمنيتها، لأن القواعد صارمة حتى في عالم الأحلام، فلن تتمكن من تمنّي رؤية زوجها على قيد الحياة!

من يمت يمت، فلا سبيل لاسترجاعه، إذ رحل إلى خالقه بلا عودة...

شمّر «دكاك» عن رسغه ليطالع التاريخ الذي رسمه هناك بخط أحمر عريض لا يُزال بسهولة: ٢ كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٠.

نظرة خاطفة إلى ساعته متفقداً التاريخ، ثم بسمة عريضة....

بقي من الزمن ثلاثة أيام وعندئذ يحقق لأماني أمنيتها!

* * *

God only knows what's hidden there...

I don't know, sometimes it feels like these are the last days of my life....

I do believe in God of almighty, and I do believe that God is the greatest; but I just ran out of all my body strength. I'm so weak, actually I'm at the weakest stage I could ever reach....

Anyways, I always praise Allah and I can't thank him enough for keeping me breathing until now...

I also want to thank you for being there for me, and I apologize for not being able to reply to your messages sometimes...

I'll pray for you every day!

* * *

تلك كلماتها وخواطرها وآلامها، عبر رسالة نصية مواربة باللغة الإنكليزية وملخّصة لكل شيء.

«أماني» كانت ولا تزال مريضة، لكنه سيخفف عنها عبء المرض إلى الأبد!

لربما كان ذلك رهانه الوحيد لولوج الجنة، فهو لم يقم بعمل واحد اعتبره جيداً في حياته التافهة بأسرها...

لقد غيرت «أماني» حياته، لذا كان عليه أن يغير حياتها...

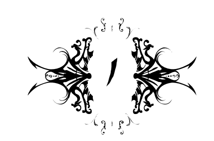
سار في ممر المستشفى الطويل والبارد بغية صب الماء من الدورق، فقد جفَّ حلقه من فرط التفكير.

شعر بإثارة عجيبة لم يشعر بها عندما كان يرتكب حماقاته السابقة.... أحسّ بالخلاص، لكنه لم يلبث أن توقف لدى رؤيته تلك الممرضة المنتحبة التي تعوّدت أن تكون في غرفة والده لإجراء فحوص الضغط والسكري له، وقد التفّت حولها زميلاتها من الممرضات كي يخففن عنها ويواسينها بعشرات العبارات...

تُرى ماذا حل بها؟ ما مشكلتها؟

أتراها أمنية أخرى اتخذت مساراً خاطئاً؟ أم تراه شيئاً آخر؟





علاقة «دكاك» بأبيه كانت أقرب إلى علاقة الفأر بالقط... عدائية! أفضل وصف لها، والقط هو الأب طبعاً... كان هذا قبل أن تصيبه الجلطة، فيصبح بذلك كائناً بشرياً واهناً لا يقوى على السير إلا بمشقّة.

عندما كان «دكاك» أصغر سناً ولا يزال في المرحلة الإعدادية، سألهم مدرس الرياضيات ذات حصة:

- من منكم تزوج والده بامرأتين؟

رفع يداً مترددة لأنه كان يهاب ذلك المدرس بشدَّة، فسأله باهتمام:

ـ أأنت ابن الأولى أم الثانية؟

ـ الأولى.

ـ معنى هذا أنك مظلوم يا بني، مظلوم!



شعر فعلاً أنه مظلوم... أستاذ الرياضيات الذي لا يخطئ أبداً قال إنه كذلك.

منذ ذلك اليوم صارت نظرته إلى والده أكثر مقتاً، وتعمّد تجاهل صراخه وعدم تلبية أي طلب له ولو كان كوب ماء...

كان يقطن حيّاً، حيث يجتمع مع غالبية صعاليكه عقب الرجوع من الدوام الدراسي، فيمارسون لهوهم المحبّب والمتمثل في تدوين عبارات التشجيع للأندية الرياضية المفضلة، أو عبارات مسيئة ورسومات بذيئة وشعارات شبابية أو تشهيرية على الجدران بعلب رش الصبغ، أو للعب كرة القدم بخشونة وعنف. وبرغم المشاجرات واللكمات، كانت تلك أكثر أيام حياته متعةً... كان يتنفس الهواء الطلق بحيوية ويشعر به.

اليوم صار يخصص ساعة أسبوعية لملاقاة رفاقه الذين لا يزالون عُزاباً مثله، حيث يسترجعون الذكريات والنوادر التي حضنتهم صغاراً...

في الابتدائية كان من الثلاثة الأوائل، ثم تراجع أكثر فأكثر خلال المرحلة الإعدادية، حتى انتهى تقريباً في الثانوية، ليترك الكلية بعد فصل واحد، محاولاً تحصيل رتبة من أكاديمية الشرطة، لكنه لم يفلح كعادته مذ تعرّف الفشل على حقيقته المُرة في المرحلة الثانوية...

* * *

ألحَّ عليه «منصور» صديق الطفولة في الكتابات الجدارية ومباريات كرة القدم والمشاجرات، فوثق به... أخبره أن المال سيكثر بين يديه من دون حساب، فدفع له الجزء الأكبر من «تحويشة» تجارة الممنوعات.

قال إنه رأس مال سيشغّله في بورصة الأسهم الرائجة، فوافق «دكاك» متحمّساً بعد السؤال والتقصّي عن مضمونية الربح.

لاحقاً طالب بماله عندما وجد أنَّ صديقه العزيز كفَّ عن الرد على مكالماته، ولأنه تعرّض للعديد من المآزق المالية، لم يكن آخرها رجوعه الخائب من إحدى دول الخليج، حيث سافر من دون توثيق عقد العمل، فعاد بخفّي حنين...

زار «منصور» في شقته، فوجده في حال مزرية هو الآخر، وقد رفض إعادة المال إليه زاعماً أنه وظّفه في البورصة، لكن المنظر العام للشقة أنبأ «دكاك» بأن صديقه كاذب، وبأنه - على الأرجح - أضاع ماله في القمار وممارسة نشاطاته المفضلة في التحشيش، فتبادلا التهديد والوعيد حتى انتهى بهما المطاف إلى تبادل اللكمات، ومن ثم الجروح والطعنات بزجاج النافذة التي كُسرت أثناء الشجار، حيث تلقى «دكاك» ضربة على وريد في رسغه، فأعادها لـ«منصور» طعنة عنيفة في صدره، ثم قفز من الشقة محاولاً الهرب...

لم يعلم أن الجيران أتوا نتيجة الضجيج الذي وقع، فحملوا

صديقه ومضوا به إلى المستشفى، حيث تم إنقاذ حياته ليقوم بتحرير محضر ضد «دكاك»، وعلى الفور انتقل رجال البوليس إلى حيث يقطن، وأمام والده المتجهّم على الدوام تمَّ جرّه إلى مركز الشرطة ليُنظر في أمره.

تمّت مواجهته بأقوال الجيران الذين أكدوا رؤيته وهو يقفز من الشقة ليلوذ بالفرار. اعترف بما فعل، فأمرت النيابة بحبسه على ذمة التحقيق بعد أن وجّهت إليه تهمة القتل غير المتعمّد لحسن حظه...

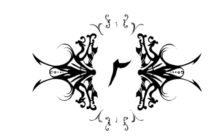
* * *

فيما بعد:

سيواصل «منصور» عمليات نصبه واحتياله حتى بعد تماثله للشفاء...

وسيُقبض عليه، ويتم إيداعه السجن بحكم قضائي لمدة عشرة أعوام مع الأشغال الشاقة.





كان «دكاك» متمرداً...

ليس لمجرد الرسم العبثي على الجدران، بل كان حيوياً ومختلفاً عن بقية أترابه منذ الصغر. كل الذين عرفوه اعتبروه مجرد مجنون خطر يجب ردعه، وهو - في المقابل وفي معظم الأحيان - بالنسبة إليهم عنصر الإلهام السوداوي، المحرّض على الثورة والتمرّد على أي نظام رتيب!

لم يترك أحداً ممن يعرفهم في حاله، بل عمل على ملاحقة الجميع بتصنيفاته التي تؤكد غرابة أطواره وتفكيره الذي لا يتوقف كالآلات. في كل مناسبة يُظهر مواطن القوة والضعف في ما يلحظه، يستمتع بإثارة الفكرة التي لا يتورط بين براثنها، ويشمت من تخبطات



من يعرفهم، أولئك الذين ينفّذون تلك الفكرة بحذافيرها لأنها الواقع كما اعتادوه، ومن دون مجازفة منهم للاستعداد لتغييره...

ذات مرة سخر من صديقه المقرب «إحسان» الذي صارحه بموضوع زواجه القريب، كيف أنَّه غير مقتنع بالعروس ولا بترتيبات العرس وخلافه. وبعد استجواب دقيق معتمد من قبيل الصراحة المطلقة، تبيّن لـ«دكاك» أن صديقه خطب الفتاة من دون أن يرى صورتها حتى!

في تلك الليلة، ووسط سحب دخان الأراجيل داخل المقهى الشعبي، قال لـ«دكاك» بشفتين متبرّمتين:

ـ لمَّحتُ برغبتي في رؤيتها، فلاقيت معارضة هوجاء من الطرفين، من أهلي وأهلها!

ـ لأنك أحمق وأهلك وأهلها جُهّل حمقى!

كان صاحبه من النوع الذي يتلقى الإهانات طوال الوقت، ما جعله عديم الإحساس...

دمدم بعبوس وجه وهو ينفث الدخان من منخريه بكثافة:

- قالت والدتي إنها تزوجت هكذا، ووالدي قال إنها العادة....

لم يرحمه «دكاك»، إذ ردَّ بصوتٍ قبيح:

ـ يعني «دبَّسوك» بفتاة الله العليم كيف كانت وكيف تكون وكيف ستكون، وأنت وقعت «يا شاطر» كالفأر في المصيدة! يا



أخي أضعف الإيمان أن ترى «خِلقتها»! حتى رسولنا الكريم أمر بهذا!

- يا أخي لم أقدر! جدار التعنّت الخرساني وقف في وجهي و... ثم تعال... ماذا كنت ستصنع لو أنك مكاني؟

- كنت بحثت عن بنت حلال أهلها يفهمون، بدل أن أناسب قوماً جُهّل يتشدّقون بالعادات والتقاليد، وهم لا يفقهون الألف من الياء، ولا الرياضيات من الرياضة!

- هذا أنت! «يا بختك»! تتحدث وتعيش وتعمل وتأكل بحرية، لكن أنظر إلى حال من لا يزال يسكن مع أسرته وهو في هذا العمر!

- بالطبع يذلّونه وهو مستسلم ذليل، كل شيء بشروط الوالد وتحت إشراف الوالدة... يا مغفّل!

والذي لم يذكره «دكاك» لصديقه أنه كان خاطباً بالفعل، لكن أسباب إلغاء تلك الخطوبة المتكتمة كانت مدعاة للسخرية، وهو لن يسمح لمغفل كصديقه بالسخرية منه لأي سبب كان!

هذا غيض من فيض، فقصص «دكاك» كالسِيَر والملاحم، تبدأ باقتحام الأماكن المهجورة وأوكار العصابات بحثاً عن الذات في المشاكل، مروراً بالسرقات وتجارة الممنوعات، وانتهاءً بالعلاقات الأسرية المتفسخة، وحكاوي الحياة غير المفهومة...

حتى توبته عن الأخطاء لا تكون كافية للقضاء على احتمالات



الوقوع في مزيد منها. وقت الحلم في عالم لا خطأ فيه قد فات، والتوبة باتت بدافع النفاق!

كان إيمانه يوماً بأن الإنسان مهما بلغت درجة شروره فهو يحمل الخير في داخله كقبس من نور. كان هذا قبل أن يتوصل - بإيمان أيضاً - إلى أن الإنسان حيوان منافق، يتظاهر وسط القاذورات بأنه ليس من الكلاب الضالة!

* * *

أصيب والده بجلطة دماغية في الساعة الرابعة والنصف عصراً...

كانا وحيدين، بغضّ النظر عن عشرات الأقارب الذين لهم شؤونهم الخاصة... كانا وحيدين.

لذا تخيّل «دكاك» موقف والده الذي طلّق زوجته الأولى، وانفصلت عنه الثانية، لو أنه ظل على أرضية المطبخ عاجزاً عن الحراك، إلى أن يعود ليجده في تلك الحالة المزرية...

لحسن الحظ أنه – قبل خروجه - اتجه إلى المطبخ كي يبلّ «ريقه» بمشروب رطب من الثلاجة، فبوغت بوالده ملقًى هناك، قائلاً بعسر ونظرة شديدة التعاسة تبزغ في عينيه:

- لا... أستطيع... الحراك!

أحسّ «دكاك» بقشعريرة في شعيرات جسمه بأسرها، كأن تياراً



كهربياً خفيفاً مسَّه، وللوهلة الأولى خُيّل إليه أن والده تحوّل إلى كائن مشلول لن يسير بعد اليوم.

في المستشفى، وبعد تفقّد أعصاب ساقه اليمنى المتضررة، تبيّن لهما ـ «دكاك» ووالده ـ أن الله رأف بحال الأخير، فمنحه ساقاً واهنة لكنها غير مشلولة. كانت الجلطة مجرد تحذير له إثر إهماله الشديد لصحته واستهتاره بها، فهو مدخنة سجائر، يلتهم السكريات بنهم طفل، والنظام الغذائي بالنسبة إليه عبارة عن أضحوكة.

في المستشفى كان عذابه شديداً.... في البداية ظل لليالٍ يتقيأ ما يُقدّم إليه من طعام، فأوصلوا محلول التغذية إلى أوردته، في حين صارت الفرشة الأرضية مضجع «دكاك» أمام سرير والده كل ليلة.

عندما أمر الطبيب بضرورة مبيته في المستشفى أظهر والده مرحاً، رمقه «دكاك» بشيء من الغيظ، فهو كغالبية الرجال المسنين يحب أن يحظى باهتمام أشمل، وطيلة الطريق إلى سريره في الطابق العلوي على مقعد متحرك، كان لا يكف عن توزيع الابتسامات مردداً أن ليس ثمة خطر!

ممر الحالات الطارئة بدا مشوّشاً وغريباً، حَسِبَ «دكاك» أن الممرض الذي اقتادهما أخطأ ممر الغرف، فالرجل الذي رآه لا يرتدي أي شيء سوى مئزرٍ بالٍ، كان لا يكاد يتوقف عن رطم رأسه بالجدار كيهودي أمام حائط المبكى!



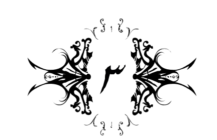
لكن الغرف كانت متنوعة، لربما سياسة التقشف، فكل غرفة تحوي عدداً من الأسرّة، مرضى القلب، مرضى الأعصاب، مرضى الجلطة... كان الحظ إلى جانبه مرة أخرى لأنَّ الغرفة تحتوي على سريرين فحسب... الأول والأقرب إلى الباب يرقد عليه مريض نائم، تطوّع الممرض بإخبار «دكاك» أنه في غيبوبة مذ أتى إلى هنا...

أرقد والده بمساعدة الممرض على السرير، ثم غادر الأخير عقب إقفال الستارة عليهما، فتأمل «دكاك» بشرود موقف السيارات عبر النافذة، قبل سماعه صوت والده اللجوج:

- صبَّ لي بعض الماء.

والدورق كان منتظراً في الغرفة، وفي الأيام المقبلة سيتكرر ذلك الطلب حتى يكلّه سمع «دكاك»...





لدى بزوغ مؤشرات رفض بدن «أماني» للكلية الجديدة المزروعة، بادر «دكاك» إلى سؤال صديقه الطبيب «وسيم» عن السبب بسحنة مكفهرّة...

كانا يجلسان في مكتب الأخير، و«وسيم» كان حاضراً ومتابعاً منذ بداية تلك الحكاية العجيبة التي دارت بينهما. لم يتوقع أن يتحول صديقه القديم من كائن مستهتر عديم المبالاة إلى هذا الإنسان الذي يكترث فعلاً لفتاة لم يقابلها وجهاً لوجه!

ـ ما الذي جذبك إليها؟ صدقاً؟

ـ صوتها.

- صوتها؟ أنت تمزح...



- صوتها كان... رقيقاً!

- رقيقاً؟! نصف الممرضات هنا أصواتهن كالنسائم!

- لا... ثمة شيء مختلف... شيء صادق... المهم، حدّثني عن حالتها وسبب فشل عمليتها بالضبط.

حدّثه بتقريرية منغصة عن «الأزاثيوبرين» و«البريدنيزولون» و«السيكلوسبورين»، تلك الأدوية التي تصدّ الجسم عن رفض الكلية الجديدة، لكنها تخفّض من قوة المناعة لديه...

بتقريرية باردة، وبحسب المراجع الطبية فإن نسبة نجاح العملية - عقب مرور عام على إجرائها - تصل إلى حوالى ٩٥ ٪ إذا كان المتبرع على قيد الحياة ومن أحد أقرباء المريض، وحوالى ٨٠ ٪ إذا كانت الكلية من شخص مُتوفّى.

ومن إيجابيات تلك العملية أنها تحسّن من مستوى حياة المريض مقارنة بالغسيل الكلوي، الذي يجب أن يرتبط بجهاز الإنفاذ ثلاث مرات أسبوعياً، فيستطيع بذلك التحرك بحرية أكبر، بل ويستعيد قدرته الجسدية والجنسية كذلك، وتتحسن حالته النفسية...

وأيضاً إذا نظرنا إلى كلفتي عملية زرع الكلى وعملية الغسيل الكلوي على المدى البعيد، فنجد أنَّ الكلفة النهائية للثانية أعلى من تلك التي لزرع الكلية نفسها!

ـ وهل ستظل الكلية المعطلة داخلها؟

ـ بالطبع لا! سنقوم بعملية استئصال لها.

ـ إذاً... كانت مجرد عملية فاشلة!

ـ هذا ما أحاول قوله لك!

رمق «دكاك» صديقه بنظرة خاوية، ثم تساءل مستلاً سيجارة من العلبة التي دقّها على ظاهر كفه مرات عدة:

ـ والحل؟

تنهّد «وسيم» ممرراً غطاء قلم حبر على ذقنه طولياً وهو يجيب:

- هي بحاجة إلى كلية أخرى جديدة!

* * *

كلية جديدة... كلية جديدة...

صار الأمر كالاستحواذ، عالقاً في الذهن كذكرى أو أي شيء لعين آخر!

من السهل قول تلك العبارة، وبكمية لا بأس بها من الدراما المؤثرة: **«هي بحاجة إلى كلية جديدة!»**، ثم تتصاعد موسيقى الكمان الشجية، فتقطع نياط القلوب الذين تدمع أبصارهم وهم يتفرجون، ثم يركلون مؤخرة الخادمة أو أحد أطفالهم إذا مرّ ليحجب الرؤية!



كلية جديدة...

هو نفسه بحاجة إلى واحدة! قبل سنة ونيف احتاج والده ـ ذاك المزعج!ـ إلى كلية جديدة، فتبرع له بها! شكره طبعاً، بنبرة فاترة، كأنه تضايق لأنه صار مديناً لولده بشيء، ثم تغلب على ذلك بالكثير الكثير من الشتائم واللعنات، فإذا «تشردق» بما يشرب كانت كلية «دكاك» السبب!

ما الذي يجعل شاباً يشارف الثلاثين من عمره تقريباً يحمل كل تلك العصبية بين ثناياه؟

ألأنه مولع بالطيش والرعونة؟ أم لأن مغامراته الهوجاء تطيح به في كل مرة؟

بدا حائراً من تقلبات المشاعر المعبَّأة في خزائن نفسيته المفلسة... فالولع الشديد لديه بكل ما له علاقة بالتحدي والمنافسة، والعاطفة الشديدة - وأحياناً العمياء - التي تربطه بشخص لا يعرفه بتاتاً كـ«أماني، هي مزيج مدهش لذلك الإطار الذي أخفى بداخله رقّة خفية، قد لا تتناسب مع رجل عصابة سرق وتاجر بالممنوعات، بل كاد يقتل أحدهم، ما يضطره إلى مواراتها كلما ظهرت، وأحياناً برعونة ووحشية قاسية حملتها بعض تصرفاته...

الضعيف المتوتر صاحب التاريخ الفوضوي، الذي يكتشف

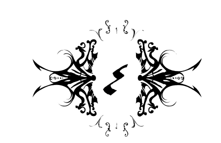
فجأة أنَّ كل حياته السابقة كانت وهماً، اليوم... واليوم فقط... بدأ حياة حقيقية ذات نهاية مبهمة!

كان يتشبث بأمل الإنسانية الذي يتوهم كثرُ وجوده في هذا الزمن القاسي، حيث نُبذت الأخلاق لسخافة التحلّي بها وسط قطعان الذئاب الساخرة من الخلائق والأخلاق والإنسانية جمعاء!

لا بأس... كفانا تحذلقاً...

الآن «أماني» بحاجة إلى كلية جديدة... فما الحل؟





بدأت ظاهرة الضوء البنفسجي الساطع في النصف الثاني من شهر تشرين الثاني/نوفمبر لعام ٢٠١٠.

ففي توقيت واحد، استيقظت سائر مخلوقات الله عز وجل حول العالم بأسره على شروق فريد من نوعه، بهر جميع الأبصار لدرجة أن بعض العميان تساءلوا عما حدث بالضبط!

الطريف في الأمر أن ذلك الشروق لم يكن يخص الشمس في شيء!

الحكومات المبصرة ممن غشيها ذلك السطوع البنفسجي المبهر أصابتها حالة ذعر لا حدود لها، أطلقت إثره إنذارات من جميع الألوان، تتعلق بالهجمات الإرهابية والانفجارات النووية على حدّ سواء، وتبادرت إلى الأذهان كارثة «تشرنوبل»، كما أن كلمة «إرهاب» استُخدمت بأكثر مما عُني بها كتفسير...

استغرقهم الأمر مدة للتحقيق والتيقن من أنها مجرد ظاهرة أخرى من ظواهر الطبيعة التي لا يوجد لها تفسير علمي واضح، ثم رددت الألسنة عبارات متحذلقة أخرى لكنها تخص الكائنات الفضائية هذه المرة!

وفي ليلة اليوم الثالث اتضح كل شيء.... أم تراه لم يتضح تماماً؟

* * *

ومن ثم، وحول العالم الذي سيردّد ما حدث للأيام المقبلة بحماسة وانفعال لا حدود لهما، ظهرت «أمنية»...

لم تعرّف عن نفسها على الفور، لكن الجميع شاهدها حتماً، فقد بزغت كالصورة السينمائية ثلاثية الأبعاد في سماوات الدول والجزر والبلدان كافة، في كل قُطر تحدثت باسمة بلغته، كما لو كانت تتقن جميع اللغات وبكل لهجاتها!

وتوقف العالم رافعاً بصره إلى السماء...

في بعض البقع الآسيوية كاليابان وكوريا الجنوبية وتايوان، حسبوا أنه إعلان خارق الجودة للترويج عن سلعة جديدة ما، لكن حديثها وإيماءاتها الناعسة التي تسلب الألباب جعلت الكل يلغي الفكرة من ذهنه للتفكير بأمر جديد ومخيف للغاية...

الملائكة!



صحيح أنها ظهرت بلا أجنحة بيضاء خافقة نابتة على ظهرها، لكن ملايين البشر من مختلف الأديان كانوا على يقين من أنها ملاك حقيقي!

وهتف هاتف يعمل لمصلحة الكنيسة أو يحرص على زيارتها كل أحد، قد تجده في أوروبا الشرقية أو الغربية على حدّ سواء:

- اصمتوا! فتلك رسالة من الرب!!

رهبة الموقف دفعت حتى العلمانيين إلى الصمت والإصغاء...

وتوقف الرؤساء والزعماء والملوك عن مخططاتهم ومجاملاتهم لحسن الحظ، كي يرقبوا ما يحدث من غرف سرية آمنة ومحصنة للغاية...

في حين اتجهت أسلحة عدد كبير من الدول في أفريقيا وآسيا وأميركا الجنوبية إلى فوق استعداداً للإطلاق، كأن صواريخهم وقذائف مدافعهم ستمزّق تلك الصورة العذبة إلى أشلاء!

ظهرت «أمنية» كإشراقة شمس منتصف الليل في عدد من العواصم، في حين ظهرت في النصف الآخر من الكرة الأرضية وقد تحوّلت خلفيتها إلى ليلة هادئة ذات بدر مكتمل...

حيَّت كوكبنا بجميع لغات العالم قائلة بنبرة ذات عذوبة خالصة:

«أمنياتي الصادقة لكم!»



كانت ذات شعر أشقر قصير وناعم جداً، تتخلله خصلة رفيعة فضيَّة اللون، بدت طبيعية للغاية لا مصطنعة كما تتصنّع نجمات السينما. حادثت الجميع وهي جالسة، أو ربما المنظر أوحى أنها كذلك، فلم يظهر سوى نصفها العلوي، حيث بدا وجهها المبيضّ والمتشرّب بحمرة خفيفة منعشة، وشهق ملايين المراهقين لمرأى تلك البشرة التي زيّنتها عينان شفافتان حالمتان، وأنف دقيق كأنه شُكّل بعناية داخل قالب، ثم الثغر، ذاك الثغر المزين بشفتين ورديتين متلألئتين!

كل من رآها أقسم - أو كاد - إنها حقاً ملاك، ملاك حقيقي...

ماذا كانت ترتدي؟ ربما حلماً! ما ترتديه كان عبارة عن ضوء أبيض يكاد يماثل لون عنقها الطويل لولا تلك الحمرة الآسرة لبشرتها.

تتحدث كما لو كانت تغني، بل كانت تغني فعلاً، تشدو بالأحلام! بصدى تردده بسيط وعذب للسامع، فقالت مخاطبة كوكبنا البائس:

- الأمنيات! الأمنيات!

هل لعبتم لعبة الأمنيات يا سادة؟ بالتأكيد فعلتم...

لعبة الأمنيات... آه من تلك اللعبة العذبة!

هي أقدم وأشهر لعبة تساؤلات لهونا بها منذ الطفولة، ويبدو أنها عالمية، تهواها شعوب الأرض كافة....

عندما كنا نسأل بعضنا البعض ذلك السؤال الأزلي المثير:



«لو كانت لديك أمنية وحيدة...

ماذا كنت ستتمنى؟

وتتباين الأمنيات ما بين الشهرة، والثروة والحب ونشر السلام العالمي، وحتى الخلود، أو اكتساب مقدرة ما خارقة للطبيعة!

الليلة... وفي أيام الميلاد الخاصة بجميع القاطنين على ظهر هذا الكوكب، أمنياتكم... ستتحقق!»

والعجيب حقاً أن الجميع صفقوا بلا استثناء – برغم عدم فهمهم شيئاً مما يحدث.

وكان تصفيقاً حاراً ومتواصلاً لدقائق طويلة!

* * *

قالت «أمنية» ما سيسجله التاريخ البشري لاحقاً كأهم منعطف في الحياة الدائرة برتابة على سطح هذا الكوكب:

- لا تزعجوا أنفسكم أو تقلقوها بأسئلة من نوع من تكون ومن أين أو كيف أتت، والأفضل من ذلك كله التركيز على: لماذا أتت؟

ادعوني «أمنية»، الاسم الذي زاركم حاملاً مسماه، الاسم الذي أتاكم ليخفف من عذاب كوكبكم وبؤسه، ذلك الكوكب الذي لم يعد جميلاً. لن أضيّع الوقت في الحديث عن التلوث والحروب



وضحاياها، عن المجاعات والزلازل والحمق البشري الذي ما زال مستمراً، بل أفضّل أن أحمل لكم، برغم ذلك كله، أجمل الأخبار!

وشهقت شهقة لوعة كأنَّما تُظهر أسفها على ما يقع، فوقع نصف سكان الأرض - على الأقل - في الحب فوراً!

تنهدت رامقة شيئاً ما علق في سمائها هي، ثم واصلت بتلك النبرة الموسيقية الرنانة:

- أمنية واحدة فقط، ولكل كائن بشري! بلا مزاح ولا جدال....

وهي فرصة لكل دائن، لكل مريض، لكل من حلم حلماً خيالياً اشتاق إلى تحقيقه برغم استحالته!

العالم يردد همهمات، كان لا يزال مسحوراً، مأخوذاً، وفيما بعد ستبدأ السخرية والشكوك من هذا الكلام المستحيل، لكن الآن...

- لكن الأمنيات لا تأتي بسهولة! كما أنكم لستم مطالبين بدفع ثمن!

أعلم أن منكم من يتمنى الحب، من يتمنى الموت له أو لغيره، والفناء والدمار والكراهية متأصلة في طباعكم، لذا...

خُيّل لسكان الكرة الأرضية أن لهجتها تحوّلت إلى صرامة نوعاً ما:

ـ لا تحاولوا تمني مثل تلك الأمنيات! انسوها إذا كانت متعلقة



بالحب أو الموت... أمنية واحدة فقط لكل فرد، أنتم من يختارها لنفسه ولنفسه فقط. إذا تمنى أحدكم الموت لشخص واحد أو أكثر أضاع أمنيته، فببساطة شديدة لن تتحقق!

تلك كانت نصيحة مجانية! لكنها كافية على ما أعتقد كي تفكروا بتروّ!

الأمر ذاته ينطبق على الحب، فلا يحاولنّ أحدكم أن يظفر بقلب آخر... حاولوا وسيصيبكم الندم على ضياع فرصكم الثمينة، لذا أرجو أن تحسنوا استغلال أمنياتكم...

واستعاد وجهها المليح إشراقته لما أردفت:

- في ما عدا ذلك... أمنياتكم أوامر!

على الفور صدّق ملايين ذلك الحديث، هللوا وأطلقوا صيحات الذهول الفرحة، في حين واصلت «أمنية» حديثها الشيّق:

- في أيام الميلاد الخاصة بكم ستحتفلون احتفالاً من نوع خاص، كل ما على الشخص المحتفل بيوم ميلاده إيقاد شمعة، شمعة وحيدة، ثم عليه تمنّي أمنيته سراً، وبعدها ينفخ ليطفئ شمعته...

بعض الأمنيات ستتحقق على الفور، وبعضها الآخر قد يستغرق وقتاً بحسب الأمنية نفسها!

الأمر سهل، وصادق! اعتبروها فرصة لتصحيح أوضاع العالم، لكن حذار...



تحوّل وجهها إلى الصرامة مجدداً:

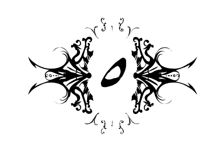
ـ انتقوا أمنياتكم بعناية، ثمة الكثير لم أقله، وسأدع لكم التجربة، راقبوا أمنيات الآخرين كي تتعلموا، فقد كنتم – وما زلتم ـ غير جديرين بها! لكن رهاني على أن أشخاصاً معينين سيظفرون بأمنياتهم التي يستحقونها فعلاً، لهذا جئت، ولأولئك الأشخاص تحديداً ظهرت...

وأخيراً، وبابتسامة تضاهي كل بسماتها السابقة عذوبة:

- تذكروا... حاذروا لما تتمنونه!

وتلاشت صورتها من سماوات العالم...





هل جُنّ الجميع؟

لا يمكن تسمية ظاهرة الضوء البنفسجي الساطع بالجنونية، فالحكومات قالت كلمتها الأخيرة بكونها مجرد ظاهرة علمية مثيرة للاهتمام...

ماذا عن «أمنية»؟

حسناً... كانت هنالك مشكلة بسيطة، إذ قام أحد جنرالات الأركان في الولايات المتحدة الأميركية بتجربة الأمر، فتمنى ألا يتمكن الآخرون من التمني! وذلك بمباركة حكومته. كان قراراً يسترعي الاحترام كونه غير أناني، ولربما شعر الرجل بالضغوط العسكرية العليا تُثقل كاهله!

جزء منه أراد التجربة، كانت جلّ أمانيه أن يصير وزيراً حربياً،



لكن الجزء الآخر منه - العملي - أقنعه بأن ذلك كلّه لا يعدو مجرد ترَّهات، لذا فليتطوع بتقديم أمنيته المزعومة على طبق من فضة لحكومته كي يتسنى لها ملاحظة مدى تضحيته العظيمة لمنحه التقدير الذي يستحقه فيما بعد!

كان ذلك سخيفاً بحق، يعكس مدى تفكير أولئك الساسة وجنرالات الحرب حين يتعلق الأمر بالمخيلة البريئة، فالجنرال مارس شيئاً أقرب إلى لغز فيلسوف كريت الذي قال إن كل أهل كريت كاذبون، فهل كان الفيلسوف صادقاً أم كاذباً؟

إذاً، أشعل رجلنا العسكري شمعته يوم ميلاده، وتمنى في سرّه ألا يتمكن أي شخص في العالم من تمني أي شيء ولو كان لوح شوكولا!

بالطبع تناسى ومن معه نصيحة «أمنية» بشأن التعميم، فقد رأوا جميعهم إخماد الثورة قبل اندلاعها. كان تفكيراً عملياً في رأيه، لكن الرجل ندم لاحقاً على تسرّعه الأحمق، وظل ليالي ينتحب لإضاعة فرصة العمر الوحيدة التي أتته على طبق من ذهب، ليرقب بقية رفاقه من قادة وساسة وهم يتبادلون أفكاراً نيّرة بشأن ما سيتمنونه هم!

* * *



فيما بعد:

لن يحتمل الجنرال ـ الذي سيتقاعد باكراً ـ التعايش مع فكرة فقدانه أمنيته أكثر، إذ سيجرد ذات ليلة مسدسه من غمده ليُخرس كل ما يحييه إلى الأبد بطلقة في حلقه!

* * *

تحققت الأمنية الأولى يوم الثلاثاء، في التاسع عشر من تشرين الثاني/نوفمبر لعام ٢٠١٠م ، الساعة الرابعة والنصف عصراً، في ساوباولو في البرازيل...

الصبي الذي تمنى في سرّه وباستخدام شمعة، حلّق في السماء بلا أجنحة! كما لو كان «سوبرمان» أو حتى «بيتر بان» وطارده بقية أقرانه وهم يصرخون بمرح جنوني!

بالطبع قال أهله - قبل يوم ميلاده - إنها حماقة، ثم رمقوه بنظرات مذهولة وهم يستشيطون غيظاً، فلو كانوا أكثر حذاقةً لأجبروه على تمني مبلغ المال الذي يدينون به لمالك الشقة الحقيرة التي يقطنونها!

بدأوا بعمل حسابات جنونية لتواريخ ميلادهم، فاكتشفت الأم - وبفرح - أن يوم مولدها يصادف الرابع عشر من شهر كانون الأول/ ديسمبر!



وفيما بعد ستتمنى مبلغ المال الذي تدين به العائلة لمالك شقتهم!

حقاً كان هنالك ملايين من ذلك الصنف محدود التفكير ضيق الأفق...

فلنتجاهلهم ولنبحث عمّن مخيلته أوسع ولو قليلاً، بخلاف صبي برازيلي أراد أن يطير.

في بريطانيا على سبيل المثال وقعت بعض الطرائف...

جماعة «الهوليغانز» وجدت عدداً لا يستهان به من أعضائها بأمنيات جاهزة، فتمنى جميعهم – برغم أن أمنية واحدة تكفي – فوز «مانشستر يونايتد» على فريق «ليفربول» بنتيجة ١٣ مقابل لا شيء!

عدد من المشرّدين تمنوا أن تنعم الملكة عليهم بألقاب رفيعة! كالسكير العجوز «بنِدِكت»، كريه الرائحة، ممزق الثياب، والذي كان مجنداً احتياطياً يوماً، ولا يكفّ عن سرد أمجاده الكاذبة في الجيش...

وعقب مرور ثلاثة أيام على عيد ميلاده الخاص، كان الرجل ينحني أمام سيف جلالتها، حيث أنعمت عليه بلقب «سير بنِدِكت»!

لم تتحقق أمنيته فوراً، فـ«أمنية» سبق أن نبّهت العالم إلى ذلك، لكنه أدرك أنها في سبيلها للتحقق عندما زاره وفد هام يوم ميلاده



لأخذه إلى فندق فخم، حيث نظفوه وألبسوه ثياباً لائقة، إذ ليس من المعقول أن يقابل ملكة بريطانيا بشعر وثياب عشّش فيهما القمل!

العجيب أن الكل أخذ يتهامس بشأن الأمنيات، إذ لم يفهم أحد كيفية عملها، فالجميع موقن من أن «بنِدِكت» - مثلاً - تمنى أن ينال لقب سير، والأعجب أن الإجراءات دارت على قدم وساق كي ينال لقبه، فلم يتوقف أحد ليقول: *«إن المشرد النتن تمنى ذلك، وعلينا منع أمنيته المخبولة من التحقق!»*

في حين ردد كثر أن: «الرب يعمل بطرق غامضة»!

معنى ذلك - بحسب يقين شبه مجمع - أن «أمنية» حقاً ملاك أتى من الرب كي يُسعد الناس!

* * *

أمنيات... أمنيات...

في الأيام اللاحقة صار ربع سكان الأرض من ذوي الثراء الفاحش، حيث طالبوا بالملايين والمليارات. وممن لم يحن وقت أمنياتهم بعد، قاموا بإجبار واحد من أفراد عوائلهم في يوم ميلاده على تمني الثروة بأي شكل...

ثم راحوا يتفقدون أرصدتهم في البنوك، مالئين الدنيا صراخاً



جنونياً فرحاً لأنها تخطت التسعة أو العشرة أصفار.... هؤلاء كذلك ممن يمكن اعتبارهم مملين، وإن كان ذلك طبيعياً للغاية.

في إحصائية سريعة، وجد العالم أن ٥٪ منه تمنى الطيران بلا أجنحة! ما دفع علماء النفس إلى دراسة هذه الأمنية كظاهرة جديرة بالاهتمام، وخصوصاً أن ثمة عجائز ونسوة وفتية تمنوا ذلك أيضاً، فلم يقتصر حلم الطيران على الأطفال وحدهم!

طبعاً النسبة الأكبر كانت من نصيب أصحاب الثروات، وقد تراوحت ما «بين المليونيرية» و«المليارديرية»، ولم يطلب أحد حقّاً أن يصير «زيليونيراً» سوى خمسة أشخاص في العالم، ثلاثة منهم كانوا من الوطن العربي!

في السويد نال عالِم شاب جائزة نوبل عن توصّله إلى طريقة للحفاظ على سلالة تافهة من الديدان! بإيجاد طعام مناسب ومتوافر لها!

وقد صفّقت له هيئة من العلماء البارزين بسخرية، وهَمهَمَ عدد من الأعضاء المحترمين عن الهراء الذي يتقدم به شاب سميك النظارات كهذا العالِم، ثم يقف وبكل صفاقة كي يتسلم الجائزة العظيمة من ملك السويد شخصياً، زاعماً أن اكتشافه يعدّ اكتشاف القرن، في حين أن الحقيقة واضحة كالشمس للجميع...



لا أحد يكترث لطريقة إطعام الديدان! لقد كانت تلك أنانية يجب أن يخجل منها ذلك العالِم الأبله!

* * *

أطرف الأمنيات تحققت في اليابان!

عشرات المراهقين تمنوا أموراً طريفة بحق، كشلل الألعاب الإلكترونية، الذين أرادوا قدرات خارقة كشخصيات ألعاب الفيديو مثل «مقاتل الشارع»، فصاروا يقذفون اللهب من أكفّهم أو يُصدرون شحنات كهربائية عنيفة من أجسادهم!

عدد كبير منهم صار يطير باستخدام روبوتات آلية من تلك التي تعجّ بها مسلسلاتهم الكرتونية العنيفة، مثل «جاندام» و«غراندايزر» وخلافهما، وقد تحول الأمر إلى فوضى عندما تسببت تلك الآليات بتدمير بعض البنايات وعدد لا بأس به من المرافق العامة، وتكبيد الحكومة خسائر بملايين الينات!

طبعاً كان لا بد من أن يتناسى معظم أولئك الفتية تعاليم «أمنية»، فتمنى عدد لا بأس به أن يكونوا آخر الموجودين على سطح الأرض، وأن يصيب العالم ڤيروس يدفع الموتى إلى السير كما في أفلام «روميرو» الشنيعة الخاصة بالزومبي، لكن ذلك لم يحدث طبعاً، وبالتالي أضاع أولئك أمنياتهم...



وفور اكتشافهم ذلك بادروا إلى رمي أنفسهم من فوق بنايات شاهقة الارتفاع، للخلاص من حالات إحباطهم التي ازدادت أضعافاً أضعافاً!

* * *

أمنيات... أمنيات...

في أميركا كان عالم أمنيات المراهقين والشبان أقرب إلى صفحات عوالم «الكوميكس» الذي يطالعونه بشغف...

عشرات صاروا يقودون سيارة الرجل الوطواط السوداء في الشوارع بسرعة جنونية، أو يطلقون الشباك اللّزجة من أرساغهم كالرجل العنكبوت، أو يُظهرون قدرات غير عادية عبر مطرقة فولاذية ثقيلة كمطرقة «ثور» إله الرعد، أو بخاتم يشعّ ألواناً خضراء كالفانوس الأخضر، أو بسرعة تقارب سرعة الضوء في الركض كالرجل الوميض... وآخرون تحولوا إلى عمالقة خضر جبابرة ما إن يصيبهم الغضب، فأحالوا الأماكن التي يقطنونها إلى دمار بفضل قواهم الخارقة...

لكن الطامة الكبرى أتت من أولئك الذين تأثروا بالمتحولين أو رجال X، مراهقات يحولن الطقس إلى عواصف مدمرة بغضبهن،



وفتية يُشهرون مخالب فولاذية طويلة وحادة من قبضاتهم خلال العراك، في حين أخفى عدد لا بأس به بصره وراء نظارات شمسية، لأن أعينهم صارت ـ بمجرد إزالة تلك النظارات ـ تطلق أشعة مدمرة للغاية!

وقد شهق سكان نيويورك عندما حلّقت مركبة فضائية عملاقة في سمائهم، ويعرفها الكل تقريباً بالقرص الأفقي والنفاثات العملاقة السفلية الشبيهة بالقوائم... لقد كانت مركبة «ستار تريك» الشهيرة من السلسلة السينمائية ذائعة الصيت!

لكن ثمة من تمنى كذلك أمنيات لم ولن تخطر في بال أحد من العامة...

في دوائر الشرطة استعمل عدد من المحققين أمنياتهم في كشف القضايا المغلقة، بل إن عدداً منهم استعملها، وبفضول جنوني، في كشف تلك التي يُطلق عليها «القضايا الباردة»، التي أكل عليها الدهر وشرب قبل أن تُقيّد ضد مجهول...

واحد من المحققين تمنى الكشف عن هوية قاتل شهير جداً، وهو المستر «زودياك»! وقد كانت النتيجة مذهلة للغاية!

آخر تمنى معرفة قاتل «كنيدي» الحقيقي، والحق يُقال إن التاريخ بدأ يعيد كتابة نفسه عن طريق أولئك الذين لم تتملكهم الأنانية...



مؤلفة شهيرة في القضايا الجنائية تمنت معرفة هوية «جاك السفاح» الحقيقية، ثم بدأت كتاباً جديداً بحماسة كي تكشف للعالم السر الذي حيّره سنين طويلة... لكن العالم بأسره بدا منشغلاً للغاية!



تلمّظ والد «دكاك» لقمة أخرى من عجة البيض التي ألقمه إياها بالشوكة البلاستيكية البيضاء.

صينية الطعام موضوعة على رف خشبي يمكن ثنيه إلى أسفل ذقن الرجل المريض، وقد تم تعديل نصف السرير العلوي يدوياً كي يتمكن من الأكل باستقامة...

- فول...

لقمة فول باهت اللون بالملعقة البلاستيكية، ولم ينجح «دكاك» تماماً في كبت اشمئزازه من ذلك الطعام عديم اللون والمذاق - كما تخيل - برغم أن والده يبدي استمتاعاً بتناوله!

- خِيار...



في الصباح، استيقظ «دكاك» بشعر منكوش وهيئة رثّة فعلاً، ليجد والده مستفيقاً منتعشاً وقد التفّت حوله شلة من الممرضات صغيرات السن اللواتي بالأمس كان ينتقد اهتمامهن التافه بأندية كرة القدم...

- كرة القدم اختُرعت لإلهاء الشعوب العربية عن أوطانها، تجد الخلق «كالمغفّلين» بسبب فوز فريق ما أو خسارته، وهم يدينون بالمال لبعضهم البعض، أو يفقدون وظائفهم. أولادهم يُطردون من المدارس بسبب عدم دفع القسط الأخير، والكهرباء مقطوعة عن منازلهم لعدم دفع الفواتير، والزوجات يطالبن بالطلاق.... هذا كلّه وهم يدخنون «الشيشة» في المقاهي، ويصرخون لأجل هدف لعين لا يقدم ولا يؤخر!

يتضاحكن وهن يناقشنه باستمتاع، في حين يهمس «دكاك» لنفسه بكآبة شديدة وهو ينهض ببطء:

- يا له من عجوز مسلّ!

لا ينتبه العجوز لاستيقاظ ابنه إلا عندما ينهض الأخير، فيحاول ألا يتمطى أمام تلك القوارير الرقيقة، ويهتف بحبور ماكر:

- ها قد استيقظ أخيراً! الكسول! لن تجد من تتزوجك وأنت بهذا الكسل يا ولد!

يقولها غامزاً بجفنه الأيسر الذابل للفتيات المتضاحكات، فيزداد



«دكاك» كآبة... «كأنَّك بذلك تسدي لي صنيعاً حسناً أمامهن، لكنك لا تنجح إلا بالإساءة إلى صورتي أمامهن أكثر»!

اليوم دارت المناقشات حول موضوع الأمنيات، وقد تطلّب الأمر مجهوداً خارقاً من أولئك الممرضات لإفهام الأب عما يدور الموضوع بالضبط. تخيل أن تُفهم والدك، متابع الأخبار السياسية النهم لما يجري في الأراضي المحتلة، أن ثمة ظاهرة جديدة، قد تكون علمية أو خوارقية، وهي تلك التي شرحناها سابقاً، فكيف سيكون ردّ فعله يا ترى؟

لكن الممرضات قمن بالواجب على أكمل وجه...

وعقب اختبارَيْ السكري والضغط، قامت إحدى الممرضات، قبل تدافعهن جميعاً للخروج من الغرفة، بتنبيه «دكاك» قائلة:

ـ لا تنسَ أن تجعله يأكل جيداً، لأجل الدواء...

ـ طبعاً...

سيأكل جيداً جداً، فشهيّته مفتوحة إلى حدّ مطمئن!

يبدو أن جو المستشفى المثير للسقم لدى «دكاك» أنعش والده، فهو لم يره على هذا النحو في المنزل أبداً، إلى درجة جعلته يتصرف بأريحية وارتياح، لكن يبدو أن الدلال الذي لاقاه هنا قد راق له كثيراً...



عقب الطعام وكبسولات الدواء، طلب من ابنه أن يقرأ له عناوين الجريدة الرئيسة... لا بأس، ستكون المهمة أسهل هذه المرة، إذ لا قرارات جديدة هذا اليوم في الكونغرس الأميركي، ولا اجتماعات ومفاوضات في منطقة الشرق الأوسط، ولا إحصائيات مملة لعدد القتلى في فلسطين والعراق!

العناوين كلها متفقة هذه المرة، مع صور لا بأس بها لـ«أمنية» أثناء خطابها الذي تم بثّه على جميع سماوات العالم، حيث بدأ الأمر يثير ضجة مرعبة عقب تحقق الأمنيات المزعومة...

طبعاً معلومات الممرضات تكفّلت بإيصال خلفية الموضوع إلى والده، فأبدى حبوراً؛ وأمام دهشة «دكاك» هتف قائلاً بلهفة:

- أنا أعرف ما سأتمنى في يوم ميلادي المقبل!

دمدم «ابنه»:

ـ التماثل للشفاء طبعاً!

ـ وما فائدة وجودك أنت؟! ستكون أمنيتك أنت أن أتماثل أنا للشفاء!

ـ جميل! إذاً ماذا ستتمنى أنت؟ إذا حاولتَ استخدام أمنيتك للقضاء على الأنظمة الظالمة، أو تحرير فلسطين من بني صهيون بتدميرهم عن بكرة أبيهم، فستضيع أمنيتك عليك!

ـ كيف؟!



شرح له بصبر قواعد اللعبة، فأشاح بوجهه باشمئزاز هامساً:

- تلك الأمنيات اللعينة... مجرد لهو أطفال لا أكثر!

* * *

كالعادة عرّج في ذلك اليوم قرب باب غرفتها، وكالعادة أيضاً وجده مفتوحاً بالكامل... طبعاً لا مشكلة في الداخل لأن ستارة مسدلة تمنعه من رؤيتها، لكن بإمكانه اختلاق عشرات الأعذار كي يتمكن من ذلك. في الأيام الأولى كاد الأمر يتحوّل هوساً لديه، ثم ما لبث أن هدأ، وبات يفضّل سماع صوتها فحسب...

في الليلة الأولى التي تعرّف خلالها إلى صوت «أماني»، كانت والدتها واقفة مع صديقه د.«وسيم» أمام باب غرفتها. مر مرور الكرام مفكّراً في إيجاد مكان يدخّن فيه سيجارته من دون إزعاج من حارس الأمن الذي يطارده دائماً، كون أبواب المستشفى تقفل الساعة الحادية عشرة مساءً، لذا كان عليه إيجاد مكان ملائم داخل المستشفى...

والدة «أماني» سيدة فاضلة محجبة، بالكاد تماسكت والطبيب يهمس بكلمات خمّنها «دكاك» لاحقاً. أبصر «وسيم» صديقه القديم فحياه بهزة رأس، وما إن ردّ «دكاك» بالمثل، حتى بلغ ثلاثتهم صوتها الواهن الرقيق من داخل الحجرة:

- أمّاه!

تسمّر «دكاك»، ثم وجد نفسه يستمع بخواء إلى ثرثرة صديقه، لكنه ما لبث أن توقف عن الإنصات إليه حقاً...

كان يحاول معرفة ما تقوله مجدداً، طبعاً كان ذلك أكثر من صعب، فقد تحول صوتها إلى همسات... لكن نبرة والدتها كانت مسموعة، وفيها قدر لا بأس به من المواساة.

ثم صار يعرّج كل ليلة على باب غرفتها، حيث يسير بتلهف عجيب، ليبطئ من سرعته ما إن يبلغ الباب.

تكوَّن لديه عدد لا بأس به من العبارات والجمل، فمرة سمعها تقول:

- الحمد لله، لا يُحمد على مكروه سواه...

أو...

- *أنا عطشى!*

أو...

- *كيف الأحوال في البيت؟*

حصل على الاسم من صديقه المتسائل على الدوام، لكن الخدمة التي أسداها له حقاً هي رقم هاتفها الجوال...

في ذلك اليوم سأله عما تصنعه مريضته معظم الأحيان، فأجابه «وسيم» مفكراً:



- تقرأ روايات على الدوام، وأغلبها لكتّاب عرب مغمورين لم أسمع بهم من قبل، وأحياناً تستخدم هاتفها الجوال في بعض المحادثات، أو طباعة رسائل نصية...

قاطعه متلهفاً:

ـ أريد رقم ذلك الجوال!

ـ أنت تمزح!

وتهرّب «وسيم» من صديقه لفترة، إذ كان يشعر بأن ذلك خطأً، و«دكاك» يعي الأمر ويتفهمه، لكنه لم يرحم صديقه...

وفي النهاية سلّمه «وسيم» الرقم بسحنة محتقنة قائلاً من بين أسنانه:

ـ إذا حاولتَ شيئاً...

ـ لا تقلق... لن تندم أبداً!

ـ أتمنى ذلك!

* * *

- شكراً لاهتمامك... *«والله كلك ذوق»*

- *العفو... أتمنى لكِ الشفاء العاجل!*

كانت بداية تعارفهما عبر الرسائل النصية، حيث كان «دكاك» هو المبادر.... لكن كيف حصل على رقمها؟



- سألتُ الممرضات عن أي مريض يمتلك هاتفاً جوالاً كي تتسنى لي محادثته لتمضية الوقت، فتطوعت إحداهن بمنحي رقم أحدهم... هي مسألة حظ لا أكثر.

في البداية تساءلت بوَهن عن كنهِ الممرضة التي تُقدم على إعطاء شخص غريب رقمها الخاص، وعن كيفية حصولها عليه أصلاً... لم تكن غاضبة، كانت تعاتب فحسب، فقد أوهنها المرض لدرجة غضّ الطرف، ولربما كانت هي الأخرى بحاجة إلى فرصة كهذه...

اعتذر بحرارة، وتعلل بالضجر الذي يعاني منه لسهره على والده المريض... كان بإمكانه الكذب عليها والادّعاء بأنه مريض مثلها، لكنه لم يجسر!

أخبرها بكل صدق وأمانة عن حالة والده. في البداية، خطط لإخبارها أنه مريض سمع عنها عن طريق الممرضات، ويرقد في حجرة بعيدة عنها بحوض مكسور!

ثمة ما منعه لدى بدء الرسائل النصيَّة، إذ لم يشأ الكذب على ملاك رقيق مثلها، بل قرر أن يكون صادقاً معها منذ البداية وليحدث ما يحدث...

ـ عمري؟ ولماذا لم تسألني عن اسمي؟ هل تعرفه أيضاً؟

ـ لا أعرفه، لكنني لا أريدك أن تسأليني عن اسمي، لذا ارتأيت المساواة في ذلك...

- حسنٌ... أنا من مواليد ١٩٨١، يعني عمري ٢٩ سنة...

ثم انهالت أسئلته عليها بعد أن بدأت بخجل... وببساطة كانت تجيبه...

- كنت أعمل في قصر العدل، حالياً أنا متقاعدة...

هواياتي؟ ممم ، أعشق الرسم التصويري والديكور والماكياج... والمطالعة لكتّاب عرب مغمورين!

- ممم ماذا أيضاً؟ هل سمعت بكتب المانجا الياباني؟ أعشق مطالعتها، وأعشق كذلك القصص المصوّرة، وأحب تصفّح الإنترنت، ولطالما أحببت التسوق!

- ستتسوقين مجدداً!

كذا طبع بحماسة... فوصلته صورة لوجه دائري باسم...

* * *

في الساعة العاشرة والنصف مساءً طبع رسالة نصية جديدة...

- *مستيقظة؟*

أتاه الرد بعد دقائق أحسّها طويلة:

- *وكيف أنام وأنا متألمة؟*

تنهّد... ثم عاود الطباعة:

ـ *آسف...*

ـ *لِمَ؟ أأنت السبب؟*

تبسم... ثم:

ـ أنتِ شجاعة!

ـ *بل هو أمرٌ مفروض، وعليّ التحمّل... كيف صحة الوالد؟ إن شاء الله أحسن؟ «طمني عليه»...*

شعر بغيرة مضحكة لسؤالها عن أحوال والده!

أخبرها أنه ينام كل ليلة على فرشة أسفل سريره، ولما طال الرد، تفكّر متجهّماً بالذنب الذي شعر به في تلك اللحظة، فهي تملك اليد الطولى كونها معتلة وهو صحيح البدن... ما أشعره بالذنب دونما مبرر!

ثم جاء ردها أخيراً، مرفقةً معه وجهاً دائرياً متجهماً:

ـ كان الله في عونه... وعونك!

* * *



ـ المكان المفضل لديكِ؟

ـ البيت!

ـ ماذا يعني لكِ ال... القلم؟

ـ أنا التي تحرك القلم، وليس هو ما يحركني!

ـ الأصدقاء؟

ـ ليس عندي ما أقوله...

أمنية: العازف المنفرد

اليوم رحلة في المدرسية، وهذا يعني لا طقوس مدرسية!

طقوس تحضير حقيبة المدرسة الرتيبة: كتب حصص يوم الدراسة إضافة إلى الدفاتر التي تحمل في طياتها الواجبات المدونة من ليلة البارحة وقلم رصاص، ممحاة، ومبراة، مسطرة، علبة ألوان وساندويتشات وعلبة عصير...

هذا كل شيء، لا مجال للنسيان، تلميذة متفوقة في الابتدائية، متذكرة لواجباتها ودروسها، وجميع تحضيرات ما قبل الذهاب إلى يوم دراسي جديد...

لا مقلمة، فالحقيبة الزرقاء الجلدية تحوي ثقوباً لوضع الأقلام، وجيباً بسحاب لبقية المستلزمات، تلك الحقيبة التي تحوي شعار التاج الرياضي ولا تبدو مناسبة لتلميذة صغيرة... السائق الآسيوي في الانتظار خارجاً، يقوم بمسح زجاج السيارة بإسفنجة مبلولة...



اليوم رحلة مدرسية، وهذا يعني أنَّ طقوس التحضيرات ستكون مختلفة وأكثر إمتاعاً!

طقوس تحضير متاع الرحلة: ساندويتشات زعتر وفلافل وشوكولا بجوز الهند من نوع «باونتي» وعبوة «سفن أب» وعلبة عصير فواكه مشكّلة وحقيبة الكمان!

السائق سيقوم بمهمة التوصيل فحسب، ولاحقاً تعيدها حافلة المدرسة. لا دراسة ولا حقيبة منسقة الكتب مع أقلام للكتابة...

لا واجبات! أجمل شعور هو العودة إلى المنزل من دون واجبات، وهذا الشعور يأتي بعد:

١- الانتهاء من امتحانات نصف السنة، والبدء بإجازة الربيع...

٢- الانتهاء من امتحانات آخر السنة، والبدء بإجازة الصيف...

أي أنه يحل ثالثاً... ثمة شعور رائع رابع، لكنها لم تتذوقه بعد، وهو أن تكون محاطاً بأصدقاء، ومفعماً بالحيوية، لا كمنطوٍ منزوٍ لا وجود لمقرَّب واحد تشاطره عناء الأيام الدراسية وآخر الأفلام الكرتونية، أو حتى مشاهدة أفلام الرعب بالسر بعيداً عن مراقبة الكبار المزعجة، وآخر الأعداد من مجلات «ماجد» و«باسم» و«تان تان»...

اليوم رحلة مدرسية... لا! ليس إلى المدينة الترفيهية حيث قطار



الموت المثير! مع أن أهم أمنياتها ركوب ذلك القطار! لكن هذه الأمنية الثمينة تأتي بعد تمنّي:

عدم حصول طلاق يفرّق والدها عن والدتها...

اختلاف العلاقة بينها وبين الزملاء من تلامذة صفها.

أن تصير عازفة كمان شهيرة!

* * *

والدان محبان وطفلة مطيعة يعني أسرة سعيدة...

لكن ماذا لو انزوت المحبة تحت عباءة النفور السوداء؟ فتلفّحت بها، مديرةً ظهرها للمحيط العائلي الذي دام لسنوات من الرخاء الأسري؟

والدان لا يطيقان بعضهما وطفلة مطيعة يعني أسرة تعيسة...

إلى متى؟ إلى متى ستظل الطفلة مطيعة والوالد يتهم زوجته بكل التهم الممكنة؟ يتهمها بأنها تتعمد إضافة ملاعق سكر زائدة في الشاي لإصابته بداء السكري، وبأنها تثرثر في أحوالهما الزوجية عبر الهاتف مع جاراتها وحماته!

إلى متى تظل الطفلة مطيعة والوالدة تتهم زوجها بكل التهم

الشائنة؟ تتهمه بأنه يعاقر الشراب ليلاً، ويغازل صديقتها المقربة عبر الهاتف!

ذات سهرة مسائية سمعت والدتها تشكو لصديقاتها بأسىً:

- يرجع من العمل الساعة الخامسة عصراً، ويتوجه فوراً إلى مكتبه ليفتح «اللاب توب»... لم يعد يجالسني، أخبرته أنني بحاجة إلى ربع الوقت الذي يمضيه مع حاسوبه النقال لنظفر بزواج سليم... أنا مع شخص لا أعرفه، لا يفهمني، لغة الحوار بيننا معدومة أو تكاد تكون كذلك. هذا ليس في مصلحتنا، ولا في مصلحة «أنغام» طبعاً! كل الكلام يروح سدىً، ويستمر الحال على ما هو عليه!

والطفلة تنصت صامتة حائرة، نصف الكلام مفهوم والنصف الآخر بحاجة إلى عقل أكثر نضجاً كي تستوعبه، وهي مجرد تلميذة في الصف الرابع الابتدائي، لكن بعض زميلاتها في الصف يفسرن لها - على مضض - حباً بإنارة دربها، واستمتاعاً بجعلها تدرك كم يعرفن أكثر منها...

* * *

الأب خرج باكراً، والأم لا تزال نائمة...

والدها نشيط جداً، أنيق جداً، ووالدتها كسولة جداً، لكنها أكثر أناقةً وجمالاً من والدها، ولا تنشط إلا لدى حضور صديقاتها المملات اللواتي لا تطيقهن. وإذا حضرن وكانت حاضرة، يبدأن



بالعبث بخديها الممتلئين قليلاً، ثم بلثمها بشفاههن المصبوغة، قبلات مبلولة ملطخة تشمئز منها ومن روائح عطرية خانقة تفوح من أعناقهن الطويلة كالزرافة...

لكنهن على الأقل مرحات، في حين عُجِنَ أصدقاء والدها من طينة باردة مضجرة، فقط تربيتة على الرأس لا أكثر، والكثير الكثير من دخان السجائر، لا يمزحون ولا يضحكون، يتحدثون طيلة الوقت عن البورصة ومؤشرها الذي ارتفع وهبط... عجيب أمر هؤلاء حين يتعلق الأمر بلعبة طريفة، فهم لا يتقبّلون الخسارة بروح رياضية، فأحياناً يصرخون وأحياناً ينهنهون!

لم يحدث أن رأت والدها ينهنه بسبب تلك «البورصة»، كانت تعتبره إنساناً قاسياً. لم يحدث أن سألها مرة عن درجاتها الدراسية، حتى والدتها تكتفي بلثم خدها فحسب كلما استلمت الشهادة، معلنةً أنها فخورة بابنتها النجيبة التي «تطلع الأولى دائماً»، في حين يقول والدها حين تزف له والدتها البشرى:

- هذا أمر حسن!

ثم يواصل عبثه الأزلي على حاسوبه المحمول، مرتشفاً بين الفينة والفينة قهوته المخلوطة ببودرة القشدة البيضاء، من قدحه الأحمر الأزلي الموسوم بعلامة «نستلة»...

* * *



في عيد ميلادها الأخير نالت من والدها عروسة ببطاريات تغمض عينيها وتفتحهما قائلة بابا وماما!

تمنّت لها والدتها عيد ميلاد سعيداً وهي تقبّلها، ثم طلبت منها الذهاب للهو بلعبتها الجديدة ريثما تفرغ من الثرثرة مع صديقاتها، فذهبت ووضعت الهدية في صواني الصحون، ومن يومها لم تخرج تلك الهدية من مخبئها...

من قال إنها تحب اللهو بالعرائس؟ لكن من أين يتأتى لوالدها معرفة ما تحبه؟

لحسن الحظ أن مصروفها مناسب للادّخار، فقد ادّخرت كثيراً كي تتمكن من ابتياع تلك الآلة الموسيقية الوترية، التي رأتها يوماً في واجهة أحد محلات بيع الآلات الموسيقية...

حتى والدتها لم تسألها عن نوع «الغاتوه» الذي تريده، ابتاعت «تورتة» بكريما الشوكولا، مفترضة أنها كسائر الصغار الذين يهيمون بالكاكاو، لكنها تفضل «الفانيليا» البيضاء بشدة... ولو أن «التورتة» كانت مقبولة...

صديقات والدتها حرمهن الله نعمة الإنجاب، أو أن هذا ما افترضته، لأن ولا واحدة منهن أحضرت ولداً أو بنتاً كي تلهو معه أو معها، ربما لم يتزوجن بعد، أو أنهن يخشين على صغارهن من البقاء برفقة «هذه الصغيرة الانطوائية»!



راقت لها فكرة الانطوائية تلك لفترة، ولم تكن طويلة بالطبع، إذ سرعان ما بدأت تستشعر آلام الوحدة الفعلية، لا أحد لها... لا أحد...

* * *

اليوم رحلة مدرسية إلى آخر مكان من الممكن اصطحاب بنات في المرحلة الابتدائية إليه!

١٤ تلميذة، و«أنغام» تحمل الرقم الأخير. كان في الإمكان أن يكنّ صديقاتها، وكانت تحب أن تكون لها صديقات منهن، خذ مثلاً «صفاء» المرحة التي لا تكفّ عن تدبير المقالب للمعلمات، ونكاتها دائماً مضحكة.... ليت صديقتها الوحيدة كصفاء، خفيفة الدم كي ترسم البسمة على شفتيها دائماً...

«جميلة»، البنت الظريفة ذات «البكلة» الحمراء، لا تكفّ عن مضغ اللبان، ولا عن التشدق ببعض الكلمات باللغة الفرنسية...

كانت ترحّب بصداقتها كذلك، فهي ذكية، مرحة، ممتعة، والأهم من هذا كله... جميلة!

«فتون» و«أريج».... الأولى بارعة بعزف «الأكورديون» والثانية بالرسم وكأنها فنانة محترفة! و«مروة» و«لمياء» و«سوسن» وغيرهن، شخصياتهن آسرة، يتحدثن في مواضيع شيّقة. ذات ليلة نام



الأهالي وظلَّ الصغار على يقظة ولهفة لحضور فيلم السهرة المرعب «لعبة الطفل». لو لم تسمعهن يتهامسن عنه لما عرفت أي شيء، فسهرت بدورها، ثم أكملت بقية السهرة متيقظة مرتجفة من كل زاوية ظِلّ خُيّل إليها أنها تتحرك! فقد كان الفيلم مرعباً بالنسبة إليها، مرعباً!

أرادت مشاطرة أحد بمشاهدتها تلك، لكنها - وكالعادة - لم تجده!

«صفاء» – تلك العفريتة - تسأل الجميع باستمتاع:

- شيء طائر في الهواء ويقول ماااااء! ما هو؟

تتصايح الأصوات:

ـ طيارة!

ـ سحابة!

ـ سحابة تمطر!

فتردّ ضاحكة:

- خروف «يستهبل»!

فيتضاحكن عدا الفتاة المدعوة «سناء»، فهي من المشاغبات، ومستعدة للشجار دائماً، إذ تقول لصفاء بازدراء:

ـ «بايخة»!



ـ ليست «أبيخ» من دمك!

وحين يصير التلاحم بينهما قاب قوسين أو أدنى، ويبدأ السائق بالصراخ كي يكُفّا، تنهض «مس سامية» بعصبيتها المعهودة كي تزجرهما، فتكتفيان بتبادل النظرات النارية، ثم تبدأ بزجر جميع البنات بلا هوادة، فيصمتن على الفور...

* * *

«مس سامية» هي قائدة الرحلة، وهي من يعكّر صفوها...

من بين كل المدرسات ألم يتسنَّ لهنّ سوى اختيارها لمرافقتهن؟

«أنغام» تتفهم الأمر، فـ«مس سامية» لا تطاق، حازمة صارمة، بيدها «كونترول» السيطرة على مشاغبات البنات ومشاحناتهن... امرأة عانس ذات جبين مجعَّد وجفن يرف طيلة الوقت كهزاز المحمول...

ثيابها شنيعة، أقرب إلى جلابية طُرّزت لتصير فستاناً، وهي من نوع يتبخر ولا يتعطر، وبخورها غير طيب الرائحة، كما أنَّها لا تتبرج مطلقاً. كانت والدتها تجلس لساعات كي تتبرج أمام المرآة، والنتيجة دائماً تكون رائعة. «مس سامية» لم تفعل يوماً، بالإمكان رؤية لون داكن خفيف فوق شفتها العلوية، شيء أقرب إلى زغب الذكور!

صوتها فيه بحة مقيتة لم تدرك «أنغام» أنها ميزة المدخنات. هوايتها فرك آذان البنات حتى تحمر، تضربهن بالمسطرة المعدنية



على أياديهن وهي مقلوبة حتى تزرقّ، فوق العظم مباشرة، وليس على راحة الكف...

بين الفينة والفينة تطلق صيحة كزفاح القردة كي تزجر البنات، فيصمتن لبعض الوقت...

* * *

في الواقع لم يفهم أعضاء «الأوركسترا» سبب تشريف أولئك البنات الصغيرات القاعة بتلك الزيارة... فقد شعروا بالمهانة، لسان حالهم يقول: كيف وافقت إدارتنا على هذه المهزلة؟ نحن فرقة عالمية لا فرقة سيرك!

والبنات شعرن بالملل سريعاً، لا يوجد الكثير هنا، فقط مجموعة من العازفين يقودهم رجل مسن يلوّح بالعصا بهستيريا كأنما يهدد ويتوعد، ثم يتوقفون لمزيد من ضبط الآلات لأن لديهم حفلاً الليلة...

وتصاعدت بعض أصوات البنات مطالبات بتغيير الوجهة الترفيهية، في حين تثاءبت «مس سامية» وهي تنصت بملل إلى الموظفة التي كانت تؤدي واجبها على أكمل وجه، فشرحت وظيفة بعض الآلات الموسيقية، ومهمة «المايسترو»، وما يدور خلف الكواليس و...



لا أحد ينصت سوى «أنغام» طبعاً. وفي النهاية مشى الجميع بكآبة وراء الموظفة التي قالت:

- سأريكن الآن غرف الملابس!

تأخرت «أنغام» عنهن لترمق بشغف الفرقة العاكفة على ضبط الآلات الموسيقية، وبالذات الوترية... حيث أنصتت باهتمام للحوار الدائر...

ثمة مشكلة...

عازف على الكمان لن يحضر، وهم بحاجة ماسة إلى واحد، فالليلة سيعزفون «الفصول الأربعة»، وسيحضر الحفل بعض من أهم أفراد المجتمع المخملي والمحيط السياسي المتشعب!

- أستطيع عزف الفصول الأربعة!

نظروا بدهشة، ثم باستخفاف... تلك البنت التي تحمل آلة كمان صغيرة؟!

لقد بات الوضع هزلياً أكثر من ذي قبل!

لكن «المايسترو» المسنّ كان طويل البال لحسن الحظ، فدنا منها برقّة طالباً منها اللحاق بزميلاتها، لكنها همست بتصميم:

- «أؤكد لك، أستطيع عزف «الفصول الأربعة»، بل وكل مقطوعات «فيفالدي»!



هنا توقف متفكراً، فبنت في مثل عمرها تعرف ما تتحدث عنه ما دامت تحفظ اسم العبقري «فيفالدي»، فقرر منحها فرصة...

طبعاً تصاعدت أصوات مستنكرة من بقية الأعضاء، وسخر البعض بشدة و«أنغام» تُخرج كمانها كي تضبط برفق إيقاع أوتاره...

ـ هذا سخف! إنها مجرد بنت صغيرة!

ـ صبراً، ستخطئ كثيراً فالمسألة ليست هزالاً!

هكذا تحوّل بعض الاستنكار إلى شغف، نظرات جذلة ذات جشع بزغت في الأعين، بانتظار سقوط البنت الغريرة في براثن الفشل، فالعزف ليس لعبة للأطفال، خصوصاً عزف مقطوعات للكبار كـ«فيفالدي»!

لكن القوس مسّ الأوتار صعوداً ونزولاً برفق... فتحولت الأبصار الجذلة إلى أخرى مذهولة، ومن ثم حالمة...

لربع ساعة عزفت أنغام الحركة الأولى من «الفصول الأربعة»، و«المايسترو» يضيّق من حاجبيه الكثَّين الأشيبين منصتاً باهتمام... كان يخفي دهشته بعسر، فالبنت الصغيرة لم تخطئ ولو بحركة بسيطة، كانت تعزف كمحترفة حقيقية!

ولما فرغت أخيراً، لم يصفق أحد...

لقد كوّن الجميع تقريباً فكرة عما يحدث هنا...



وبازدراء غمغمت عازفة «تشيلو» بلا مراعاة لمشاعر البنت الصغيرة:

- رائع! طفلة غريرة تستخدم أمنيتها للعزف كالكبار ويتحقق لها ذلك!

وقال قارع الطبول باستهزاء:

- متجاوزةً التدريب الشاق والمتواصل! ثم تأتي لنا وبكل صفاقة لكي...

أوقفه «المايسترو» الأشيب بإشارة من عصاه القصيرة، ثم دنا من «أنغام»، وانحنى كي يسألها برفق أبوي:

- أصحيح ذلك يا بنيتي؟ هل تمنيت أن تصيري عازفة موهوبة؟

طالعته ببصر هادئ، ثم وبرزانة أجابت:

- لا!

احتدَّ البعض، وأطلق أحدهم صيحة استهجان قائلاً:

- وتكذبين أيضاً؟! يا لكِ من...

- كفى!

نطقها «المايسترو» بصرامة عاتية، ثم عاد إلى أنغام متسائلاً باهتمام:



- إذاً؟

تنفست البنت الصغيرة ببطء، ثم ردّت قائلة بملامح هادئة:

ـ لو لاحظتم، فالمدرسة قامت برحلة إلى آخر مكان يمكن لها زيارته أساساً...

ـ هذا ما لاحظناه فعلاً...

ـ وتلك كانت أمنيتي!

ـ ؟؟؟

ـ لقد تمنيت فرصة! فرصة لإثبات موهبتي كعازفة، فرصة لجعلي أعزف مع أمثالكم من المحترفين، لا أكثر ولا أقل، لذا تستطيعون القول بأن هذه الرحلة المدرسية بمثابة أمنيتي!

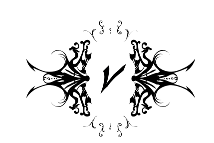
* * *

فيما بعد:

تقرر «مس سامية»، عقب نصف ساعة من الملل، إنهاء الرحلةوالعروج على المدينة الترفيهية استجابةً لتوسلات البنات...

لكنها تنسى أنغام في قاعة «الأوركسترا»... كان ذلك من حسن حظ «أنغام»!





أتت «أمنية» حاملة في جعبتها الأمل للجميع...

وصار ذلك السؤال لزاماً على كل كائن بشري على وجه الأرض:

«ماذا ستتمنى؟»

إذا شاهدت طفلاً يحلّق بأجنحة أو بدونها، أو رجلاً خارقاً يلوي الحديد ويحطّم الإسفلت بقبضته المجردة، أو جارتك الشمطاء وقد انقلبت حسناء ولا في أكثر أحلامكورديَّة، فستعلم سلفاً سبب ذلك...

لكن الأمنيات ظلت قادرة على إدهاش الجميع، وسعد كثر ممن ينتظرون أيام مواليدهم، لأنهم بذلك يمنحون أنفسهم فترة للتفكير بروية بأمنياتهم المنتظرة، وبالأخص في الوطن العربي...

إذا ما صنعنا إحصائية هنالك، لوجدنا أن أكبر النسب لمصلحة طالبي الثراء، والشفاء من الأمراض المستعصية...



لكن بعض طرق طلب تلك الأمنيات كانت أمراً مدعاة للطرافة بحق...

خذ عندك مثلاً ذلك الشخص، كان مفلساً، وقد حاول جاهداً الذهاب إلى رفاقه وأقربائه لعلّهم يسامحونه في الديون القديمة، لكنهم أغلظوا له بالقول وهددوه بالحبس...

ثم نال فرصته عقب حادثة الضوء البنفسجي الساطع، فتمنى أن يكون معه مال وفير، شريطة أن يتحول ذلك المال بعد شهر واحد بالضبط إلى ورق شجر!

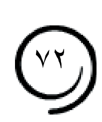
أراد أن يشمت بهم.... نظراته كانت كذلك وهو يردّ أموالهم إليهم، فكانوا يتناولونها بجشع، ويشرعون بالعد بازدراء ساخر:

- نلت أمنيتك إذاً؟ يا لك من وغد محظوظ!

طبعاً كان يحتفظ بأفكاره لنفسه... صبراً أيها الأوباش يا كانزي الأموال! لقد قمتُ بما يتوجب عليّ فعله وأنا راضٍ كل الرضا، ولسوف أسخر منكم إلى يوم يبعثون!

ما لم يتمنوا جميعهم أن يصيروا من أصحاب الملايين، وذلك ما لم يحسب له أي حساب!

* * *



جنون الأمنيات مستمر...

وقد رصدت الشبكات الإخبارية المرئية والمقروءة ظاهرتها، حتى خلت الأخبار من كل ما هو واقعي، فصارت العناوين أكثر طرافة كالآتي:

«في ألمانيا أعلن فتية من النازيين الجدد أنهم سيتمنون تباعاً عودة زعيم الرايخ الثالث «أدولف هتلر» للحياة، وسيظلون حتى تتحقق أمنيتهم!

كذلك... مؤرخ ألماني يميط اللثام عن اللغز الغامض المتعلق بالقتيل «كاسبر هاوزر»، الذي ظهر في عالمنا عام ١٨٢٨م في الساحة الرئيسية بمدينة نورمبرغ، وكان آنذاك شاباً في السادسة عشرة من عمره، لا يقوى على الكلام، وفي يده خطاب غامض، مردداً عبارة: «أريد أن أصير فارساً مثل والدي»!

من قتله؟ ولماذا؟ وما سرُّ ماضيه الغامض؟ إجابات تلك الأسئلة كلّها باتت متاحة للجميع الآن...

«في بلجيكا تمنى طفل مصنعاً للشوكولا، شبيهاً بذلك المذكور في رواية «روآلد دآل» الشهيرة «تشارلي ومصنع الشوكولا»!

«صياد اسكتلندي يتمكن من اصطياد الوحش نيسي، وحش بحيرة لوخ نيس الشهير!»

«أستاذ للدراسات التاريخية في جامعة كامبريدج يقدم الأدلة



والبراهين على أن «الهولوكوست» مجرد كذبة بثتها «البروباغندا الصهيونية» لابتزاز العالم، «وإسرائيل» ساخطة!»

«ديناصور لاحم من نوع «تي ركس» يتسكع في شوارع مانهاتن الأميركية ناشراً الرعب بين الناس!»

«في تركيا انتحرت عشرات الفتيات المراهقات عقب فشل أمنياتهن في الظفر بقلب النجم التركي «كيافانتش تاتليتوغ» الذي اشتهر في عالمنا العربي بلعب دور «مهند» في مسلسل «العشق الممنوع»! كما وقعت حوادث مماثلة لشبان تمنوا الزواج بالممثلة التركية «بيرين سات» بطلة المسلسل!»

«في الصين «بروس لي» يُبعث من جديد! حيث تمنى المواطن الصيني «إكسيو لونغ» أن يتحول إلى هذا الممثل ومعلّم فنون القتال الأسطوري الراحل!»

«في الفيليبين مجموعة من الرجال يتحولون عن طريق أمنياتهم إلى نساء!»

«تنين نافث للهب يظهر في «إيرلندا» محرقاً العديد من المنازل الريفية، والسكان المحليون مذعورون!»

«في مصر وقعت حادثة انتحار وحيدة لفتاة من المعادي، تركت رسالة تبرر فيها سبب رمي نفسها من شرفة الڤيلا الخاصة بعائلتها،



وهو أنها لم تظفر يوم ميلادها بمطرب الشباب «تامر حسني» كزوج لها!»

«المدرب المصري «حسن شحاتة» يؤكد: خلاص! كأس العالم صار من نصيبنا، ولديّ خطة مضمونة ١٠٠٪ لتحقيق ذلك!»

«من الجزائر سافر إلى أميركا المدعو «علواش مرزاق»، وعمره ٣٣ عاماً، بعد توقيعه عقداً للعب دور البطولة في فيلم هوليوودي ضخم، أمام النجم الأميركي «ليوناردو ديكابريو»!»

«الإرساليات التبشيرية في إثيوبيا تتكفل بإرشاد السكان، حيث أقيم حفل عيد ميلاد ضخم لعدد من الأطفال تحت إشرافها، وتحققت أمنياتهم، حيث لن تجوع عوائلهم بعد اليوم!»

* * *

بالطبع لم يخلُ الأمر من محاولات شبه يائسة لحسم الصراع في الأراضي المحتلة...

الفلسطينيون والإسرائيليون على حدّ سواء استخدموا عشرات الأمنيات في محاولات لإقصاء الكل عن درب الآخر، لكن القواعد كانت صارمة تماماً، يستحيل إفناء شخص عن طريق أمنية، فما بالك بشعب كامل؟

لكن هذا لم يمنع بعض الفدائيين من تمني السلاح وبعض مصادر القوة لتحقيق تفوّق على العدو، فظهر فدائي طائر، وآخر يستطيع الرؤية ليلاً بمقلتين تعملان بالأشعة تحت الحمراء، كما

ظهر عشرات ممن تعمل أجسادهم المجردة كدروع ضد الرصاص والألغام....

وتنبّه «الإسرائيليون» بذعر إلى ذلك، فانتدبوا شعبة من الجيش لتمني مثله وأكثر، فتحولت المعارك إلى سِيَر وملاحم أقرب إلى الأساطير الإغريقية، حيث يتغنى كل شعب ببطل من أبطاله العظام!

المضحك في الأمر حقاً أنَّ «إسرائيل» عانت الأمرَّين لإيجاد من يؤمن بقضيتها ودولتها، إذ إن كل مجند تمنى لمصلحة دولته على مضض... كان كل واحد منهم يحاول التملص كي يتمنى -كالعادة- الثراء فحسب، والعيش كمليونير أو ملياردير على الشاطئ اللازوردي، أو أن يمتلكه في أدنى الأحوال!

إلا أن الحقد والكراهية أدَّيا إلى فقدان عشرات من المواطنين «الإسرائيليين» المتعصّبين أمنياتهم، ولاحقاً تذكروا - بحسرة - ما قالته «أمنية» في خطابها العالمي الأشهر أن ثمة الكثير مما لم تقله... إذ تمنوا - محاولين التذاكي - إصابة الشعب الفلسطيني بأسره بأمراض لا شفاء منها، وتدرجت تلك الأمراض ما بين «الإيدز» و«الإيبولا» والشلل الكامل أو حتى النصفي، أو الإصابة بالجنون المؤدي إلى مستشفيات الأمراض العقلية!

لم يحدث ذلك لحسن الحظ، فأدركوا - بعد فوات الأوان - أن أمنياتهم ضاعت إلى الأبد!

* * *



وعندما شارك «دكاك» «أماني» تلكم الخواطر التي راودته بصدد الأمنيات، ردّت عليه في رسالة نصية:

ـ لا أعلم، أمنيتي ستكون لي بعد سبعة أشهر بالتمام والكمال، قد أكون ميتة قبل ذلك!

ـ لا تقولي هذا... ماذا عن واحد من أهلك؟

ـ أمي فقط، كان عيد ميلادها قبل حادثة الضوء البنفسجي بيوم!

ـ أخخخخ!! يا له من حظ عاثر!!

ـ لا بأس... بالنسبة إلى معارفنا وأقربائنا فأغلب الظن أنهم تناسوني، إذ أخبرتني والدتي أنهم صاروا جميعاً من أصحاب الملايين!

ـ ولكن... ألم... يحاول أحدهم أن...

ـ لا تلمهم... الجميع في ضائقة مالية! وأنا لستُ منزعجة، بل على العكس تماماً، أتمنى لهم التوفيق أجمعين!

ـ أنتِ مرهفة المشاعر...

ـ وأنتَ كذلك!

ثم أرفقت صورة الوجه الدائري الباسم ذاتها.

* * *



متى وجد أمنيته أخيراً؟

لدى بزوغ مؤشرات رفض بدن «أماني» للكلية الجديدة المزروعة، بادر «دكاك» لسؤال صديقه الطبيب «وسيم» عن السبب بسحنة مكفهرّة...

رسائلها النصية حملت تفاؤلاً عظيماً يوم بلغها النبأ السعيد، إذ ثمة متبرع بكلية جاهزة، واليوم ظهراً ستتم العملية...

تبسّم شاعراً بسعادة عجيبة لا حدود لها تختلج بين ثناياه، وظل يشدّ من أزرها بعشرات الرسائل الطريفة، حيث داعبها دعابات لا تنتهي كي يُشعرها بأنه حقاً سعيد لأجلها...

أرسل لها صورة بالغة الطرافة لثلاثة جراحين يثبون في الهواء معاً مطلقين صرخات انتصار فرحة، مع تعليق بسيط: *«الأطباء عقب نجاح عملية «أماني»!»*

فردّت عليه: هههههه... ثم... الوجه الدائري الباسم نفسه!

لكن بعد تلك العملية المزعومة بحوالى ثلاثة عشر يوماً:

افتقدتك يا صديقي الغالي!

كنت أنوي مراسلتك...

لكن لا أحب أن أسبب لك الإزعاج بأخباري الكئيبة...

العملية فشلت! الكلية المزروعة في جسدي بدأت تُفرز سموماً أهلكتني!



ضيق تنفس وغثيان مستمر وألم في الصدر.... الحمد لله على كل حال...

هذا قدر ومكتوب عليّ...

الجراحون يخططون لعملية أخرى لاستئصال الكلية المرفوضة!

لا حول ولا قوة إلا بالله...

آسفة لاسترسالي بسرد أحداث حياتي التعيسة... لكنني أعتبرك أكثر من مجرد صديق...

أنت الأخ الذي لم تلده أمي!

حفظك الله يا أخي!

لم أحب أن أخبرك بهذه المأساة!

الدموع لا تفارق عينيّ إلا في ما ندر!

آسفة.... لا أحب التسبّب لك بالحزن!

فشلت العملية ١٠٠٪، ولم تعمل الكلية المزروعة!

كيف رفض جسمي وجودها؟

لماذا؟ سؤال وجّهته إلى جميع الأطباء والجراحين ولم أتلقَّ جواباً مقنعاً...



متى؟ منذ أول يوم... لكن لم أكتشف ذلك إلا بعد مرور ١٣ يوماً!

أعلم أنه لا شكر بين الأصدقاء، لكن أحب أن أقول لك: شكراً يا صديقي العزيز، فعلاً أنا أحتاج إلى الدعاء...

تريد تفاصيل يا صديقي؟

لا أعتقد أن ثمة أحداً يريد قراءة تفاصيل مقرفة!

هو مرض خبيث يجعل حامله يشعر بأنه سجين هذا الجاثوم الكريه المسمى بالفشل الكلوي!

الغثيان، عدم الأكل، عدم القدرة على التبول ولو قطرة.... هل تعلم أن طولي ١٥٠ سم ووزني ٤٢ كلغم؟

أنا أبدو كهيكل عظمي، بل إن الأطباء بالفعل ينادونني بـ«كيس العظام المتحرك»!

عمري ٢٩ سنة و أبدو في الـ ١٥ أو ربما ١٣ .

الله يبعد عنك شر الأمراض يا صديقي...

لا تُتعب نفسك بسماع هذه المأساة...

فعلاً هو عذاب نفسي وجسدي...



ولداي بحاجة إليّ: عمر ٦ سنوات و أسماء ٤ سنوات...

هذه صور لهما............................!

صديقي... أشكرك على كلماتك المشجعة!

لكني لست متأكدة من خروجي من المستشفى في كفن متجمد، أو على قدميَّ وروحي في جسدي!

الله أعلم!

سبب وجودي في هذا العالم هو لـ«عمر» و«أسماء»...

صديقي.... قواي خارت!

موعد عملية الاستئصال لم يُحدد إلى الآن وهذا ما يثير جنوني!

كان المفروض الليلة!

تأجل إلى يوم غد! وأتوقع أن يؤجل إلى .... الله أعلم!

أكره الأطباء!

بسبب خطأ طبي وإهمال كريه زرعوا في جسمي كلية فيها التهابات وحصى وتليّف...

لكن ماذا أقول غير حسبي الله ونعم الوكيل؟



إن شاء الله سوف أبلغك قبل دخولي العملية...

دعواتك لي يا صديقي العزيز!

أستغفر الله... فعلاً ساعات مرّت عليّ من الآلام بسبب الفحوص القاسية المؤلمة، تمنيت خلالها أن أغمض عينيّ وأنتقل إلى الرفيق الأعلى، فهو أرحم من هؤلاء الجزارين الملقّبين بالأطباء!

وخصوصاً عندنا... الأخطاء الطبية تكلّف أرواحاً، لكن يتم دفنها تحت عذر أقبح من ذنب: «خطأ طبي وارد!»

لهذا أقول لك: لا أعلم ما إذا كنت سأخرج من طاولة العملية المرعبة مع الروح متحدة بالجسد، أم منفصلة مع عزرائيل!

في النهاية أقول: الحمد لله على كل حال!

لا يا صديقي.... لستُ بخير!

دواء يضطرون إلى إعطائي إياه اسمه «تايمو»، المدة التي آخذها فيه ٤ ساعات عن طريق الثقب الموجود في صدري لجهة اليمين والمتصل مباشرة مع القلب...

بدأت بأخذ هذا السم منذ أمس...

الآثار الجانبية التي بدأت أعاني منها: سرعة نبض القلب عن المعدل الطبيعي وهلوسة... كما بدأت أسمع أصواتاً غير موجودة،



وأكلم نفسي وأرى أضواءً ولا أستطيع التركيز... أنا في طريقي إلى الجنون!!

وهن وضعف عام في الجسم...

فقدان الشهية والترجيع «التقيؤ»...

ضيق في التنفس...

باختصار.... أحس أن هذه أيامي الأخيرة في الدنيا...

أطلب من الله الرحمة!

* * *

هنا لم يحتمل «دكاك» أكثر...

وكطفل صغير انفجر ينهنه بحرقة!

* * *

«أماني» الرقيقة...

«أماني» التعسة...

كانت ولا تزال مريضة، لكنه سيخفف عنها عبء المرض إلى الأبد!



يتحتم عليه فعل ذلك، فقد كانت تلك المرة الأولى التي تذكر فيها قصة ولديها... لكن أين تراه زوجها بحق الله؟

هو لم يظهر يوماً، فهل هي مطلّقة؟ أم أرملة؟

لا... هذا ليس من شأنه...

لكن حياتها باتت من شأنه، ولن يتخلى عنها!

في اليوم نفسه الذي تلقى فيه رسالتها النصية كان قد اتخذ قراره، فدوّن على رسغه تاريخاً محدداً بخط أحمر عريض لا يُزال بسهولة...

كان يُضمر إعجاباً خفياً بتلك الممرضة، لا لحُسنها وإنما لأسلوبها العذب في مسايرة والده عكر المزاج...

رآها تنتحب بأعصاب منهارة فعلاً، فانتابه الفضول اللَّزج متناسياً عذاب أماني لبعض الوقت...

دنا كي ينصت... فسمع عبارات على غرار:

- *لم تعد «أريج» من تلك الرحلة المدرسية اللعينة منذ البارحة!*

أو:

- *في عيد ميلادها تمنت أن تصير رسامة مشهورة!*

أو:



ـ آه يا طفلتي! أين أنتِ؟ أين غاليتي؟!

اكتفى «دكاك» بذلك...

وسار مبتعداً عنهن بجبين مقطب، وقد توضح له الأمر على نحو ما!



أمنية: لغات جديدة

تأرجح الفلاح على صهوة حماره قليلاً، فكرّ عن أسنان نصفها ناقص مسودّ وهو يصدر صوتاً منذراً بطرف فمه...

الجو يغلي بسخونة جهنمية، والعرق يبث شعوراً بالدبق والنتانة في عنقه الأسمر وإبطيه، لكنه خاضع مستسلم للمشيئة الإلهية، «يلاعب» خيزرانة رفيعة للغاية على جنب الحمار كي يسرع، من دون أن تأخذه به شفقة أو رأفة...

يرفع قنينة «سفن أب» مدثرة بالخيش ليتجرع الماء الذي فقد برودته.... يشرب أقل القليل لأن الماء الدافئ لا ينشّطه، ثم يبصقه بعد تبليل ريقه، ويطبق «الأحجح» متظاهراً بالانتعاش...

بعدها يصبّ بعض الماء على مؤخر عنقه، تفلت بضع قطرات على ظهر الحمار وعنقه فيجفل...



يلجمه صاحبه بضربة شبه قاسية، ثم يستعيد اللجام متأملاً منتهى بصره، ويستعين بسقف راحة يده كي ينظر بوضوح أكبر...

اقترب أكثر فأكثر، ثم أوقف حماره بشدَّةٍ خشنة من اللجام، وبلهجته القروية المحتدة قليلاً زأر كالغضنفر:

- ممكن نخدم؟

تلفّت «سلمان» حوله متجاهلاً الفلاح، كان قد ارتدى نظارات شمسية عريضة، فبدا كضابط مباحث يفتش عن الأفيون بين طيات الزرع في الحقل المترامي الأطراف!

قال أخيراً وهو يرمق الفلاح بابتسامة مستخفة:

- محفظتي مسروقة!

- مسروقة؟!

- «أي نعم مسروقة»!

- ومن الذي سرقها يا بيك؟

- اللصوص طبعاً!

- ولماذا لم تبلّغ الشرطة؟

- لأنهم لن يقلبوا رؤوسهم ودفاترهم ودورياتهم لأجلي!

- والله الحق معك يا بيك! الحكومة مشغولة بالقبض على التعساء من أمثالنا، لا مساعدتهم!



- أليس كذلك؟ لذا قررت أنني صاحب الشأن، وعليه جئتُ باحثاً عما هو حق لي...

عاود الرجل الفلاح لكز حماره قائلاً بابتسامة فاترة:

- على العموم جحا أولى بلحم ثوره!

ثم عاود التوقف فجأة... ملامحه تتقلص، ويده تتحسس معدته بجشع!

وثب من فوق الحمار صائحاً:

- من بعد إذنك، سأقضي حاجتي هناك، فلو... لو لم يكن ثمة مانع... الحمار لا مؤاخذة!

- أجل، أجل... سأراقبه لأجلك ريثما تعود...

هزّ الفلاح برأسه عرفاناً للجميل، ثم خف باتجاه إحدى الأشجار متواثباً، فتابع «سلمان» مراقبة الحقل...

كان يبحث عن القلل المعزولة كونها الصيد الأغلى ثمناً والأكثر أماناً، فهي بعيدة عن الأعين، كما أن لأصحابها هواية تركها لأسابيع قد تمتد إلى شهور طويلة...

- ***«يا بيك»!***

ألقى بنظرة وراء ظهره، فوجد البهيم يتأمله بأذنين متدليتين!



دنا «سلمان» خطوة واحدة وشبه خطوة، قبيل سماعه ذلك الصوت العميق العجيب:

ـ نصيحة لوجه الله، إذا توغلت أكثر فستجد لافتة توجهك يساراً إلى عزبة «الضنكي»... هناك... نصيحة ألا تحاول زيارتها!

تساءل «سلمان» بجذل:

- ولماذا؟

ـ لأنها... قل أعوذ برب الفلق... عزبة مسكونة! ملأى بالعفاريت «يا بيك»!

حتى الرجل الذي يحرسها له سحنة الشياطين، أعور كالدجال!

- ولماذا يحرس الأعور الدجال عزبة تقطنها العفاريت؟

ـ لأنه منهم!

راقب «سلمان» خلقة الحمار ظناً منه أنه يمازحه، لكنه، عندما وجد الجديَّة تنضح من تقاسيمه المتيبسة، مسح رأسه وعنقه وربت على ظهره مردداً:

- شكراً على أي حال!

* * *



طقوس عدة السرقة: لثام وقفازات وملابس رياضية سوداء + سجائر تحسباً للانتظار + مطواة + حقيبة جلدية متينة وخفيفة...

حين ساد الليل بلحافه الحالك وتراصت النجوم في أماكنها، تشبث «سلمان» بالجدار الشاهق بعد وثبته شبه المؤلمة من الشجرة، وكاد ينزلق بسبب قبضتيه المتعرقتين أسفل القفازين اللذين ارتداهما، ونازع باستماتة حتى تمكّن من حمل جسمه فوق الجدار، ومن ثم مال على الجانب الآخر، ومنح ساقيه الأسبقية قبل هبوطه على أرض الحديقة...

كتم أنفاسه متوقعاً كارثة، لكنه تأكد من الأمر مسبقاً، الحارس الأعور اعترف له - تحت تأثير الحشيش - أنه لا يطلق الكلاب في أرجاء الحديقة، كي لا يكلّف نفسه عناء إعادتها إلى أقفاصها...

ومن بعيد أبصر عدداً من السيارات المتوقفة، فعضَّ نواجذه حتى أدماها غيظاً، فالحارس الأعور الماكر خدعه عندما قال إن أصحاب هذه الڤيلا لا يأتون سوى مرة واحدة أول كل شهر!

هل يُقلع عن تنفيذ مخططه؟ لا طبعاً، إذا أتوا الليلة فسيأتون كل ليلة، وإذا راهن فسيراهن على أن الذين أتوا واجتمعوا داخل هذه الڤيلا لم يجتمعوا للدردشة السياسية، بل لا بد من أنهم الآن يسبحون في بحر من الأحضان الأنثوية والثمالة!

من دون أن يدركوا أن شخصاً قد أتى لجعلهم يولولون! ليس



حسرة وتألماً طبعاً بل سخطاً وغضباً، فأولئك الأوغاد يجلسون على قدور الأموال التي لم يتوقفوا يوماً عن نهبها، كي يصنعوا منها قلاع «كوتشينة»، وبطاقات تعرفة توضع في خواصر راقصاتهم!

كانت السيارات رياضية، إلى جانب ثلاث أخر سوداء اللون من طراز واحد كما لو كانت لحراسة شخصية! فاستنتج «سلمان» بسهولة أنها لأبناء أصحاب قدور الأموال، ما زاد من قهره ورغبته في اقتحام حصنهم المنيع لدحرهم أجمعين، أولئك الأوباش الصغار الذين اعتبروا كل ما في الدنيا من حقهم، فإذا قضوا نحبهم طالبوا ربهم - باستعلاء - أن يفتح لهم أبواب جنانه، كي يمضوا إلى خمورها وحورها كما لو كانت حقوقاً طبيعية لهم!

عندما يكون المرء من عائلة فقيرة ويمتهن السرقة فلا تنتظر منه أن يقدم تفسيراً، هكذا فكّر «سلمان» وهو يتأهب للاسترزاق على حساب أولئك السكارى الذين لا يدرون شيئاً عما يدور حولهم. بإمكانه تسمية ما يقوم به انتقاماً بنيل قليل مما ينالونه كل ليلة من دون حساب.... ضرب عصفورين - ولربما بضعة عصافير - بحجر...

* * *

بقي في موضعه مراقباً متحفزاً قبل البدء بعملية التسلل إلى داخل الڤيلا...

اختبأ بين الأشجار مطمئناً إلى تلاشيه عن الأعين البشرية إن وُجدت، وأراحه ألا يرى كلاب الحارس تمر بالمنطقة لمسحها برغم وجود أصحاب الڤيلا...

جذبت انتباهه المتحفز جلبة بين الحشائش على يساره، فنظر مجفلاً وبقلب متواثب كالجنادب...

ارتخى بعض الشيء عندما أبصر ثعلباً بنياً ضئيلاً يخرج مترنّحاً، فواصل مراقبته متسائلاً عن سبب وجوده في حديقة الڤيلا، في حين أرخى الثعلب قوائمه مُظهراً جروحاً دامية قاسية في كل شبر من جسده الضعيف، وابتدأ يلعق موضع كل جرح بأسف المصاب على حاله المزرية، بطريقة ممزقة مبعثرة...

توقف الثعلب هنيهة، ورفع رأساً متثاقلاً كي يرمق هذا الغريب المتشح بالسواد الذي يراقبه كالرسخ، وبتؤدة همس قائلاً:

ـ ***«الكلاب! الكلاب السوداء اللعينة!»***

رمقه «سلمان» بنظرة طويلة قبيل سؤاله:

- *«وما الذي أتى بك إلى هنا؟!»*

ـ ***«جلبني أصحاب المركبات الأوباش بعد اصطيادي، وأطلقوني في الحديقة قبل أن يطلقوا كلابهم اللعينة في أعقابي!***



كانوا يتسلون بي لا أكثر، والآن أدفع ثمن تسليتهم العابرة من لحمي ودمي!»

- *«هل تؤلمك جراحك؟»*

- ***«يؤلمني ما صنعوه بي أكثر، لكن صبراً، قريباً عندما يلحقون بي نتحاسب!***

إن لنا ربّاً يأخذ حتى بحقنا نحن الحيوانات من تلك الأخرى المعتدية والبشر المعتدين... على حدّ سواء!»

- *«حظا طيباً إذاً!»*

وترك الثعلب كي يواصل لعق جراحه المؤلمة، منطلقاً بحذر صوب الڤيلا...

* * *

لاحقاً:

يقضي الثعلب نحبه متأثراً بجراحه العميقة...

* * *

كان تسلله من إحدى النوافذ موفّقاً، ببراعة تمكّن من فتح الرتاج من دون ترك أي أثر يُذكر...



في الطابق الأرضي لم يجد سوى آثار عربدة، الفوضى في كل زاوية وركن، والرائحة خانقة بالانحطاط البشري المقزز...

صعد الطابق العلوي ببطء، لديه كل الوقت الذي يحتاجه في وكر السكارى، فإذا لم يناموا من المعاقرة أو المعاشرة، فسينامون إثر المخدرات التي يتعاطونها بالشم أو الحقن في أوردتهم!

الغرف كثيرة وبانتظاره، ولما تبيّنت له عتمتها من أسفل الأبواب قرر تنبيشها الواحدة تلو الأخرى...

هكذا فتح أول الأبواب برفق وحذر، وتسلل إلى الداخل بخطوات القطط المتحفزة... وجدها غرفة مكتب، فقرر أن...

ـ *«حرامي!! حرامي!! حرامي!!»*

وثب متراً إلى الوراء ببصر شاخص، وكاد يلوذ بالفرار لولا...

ـ *«حرامي!! حرامي!!»*

تقدم بشك، ثم بيقين، وأخيراً بثقة... القفص البيضوي كان يحوي ببغاء «كاسكو» أبيض اللون، ولا يكف عن الثرثرة!

سأله بتهكم وهو يداعب قضبان القفص:

«إذاً... هل ستكون صديقاً لطيفاً وتخبرني عن مخبأ كل ما هو نفيس في هذه الغرفة؟»

توقف الببغاء عن الصياح، ثم وبحملقة مضحكة صاح:

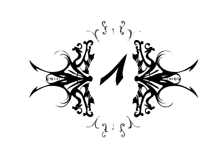


«سأخبرك طبعاً! فقد سئمت رؤية أولئك البهائم وهم يمارسون أفاعيل لا تليق حتى بالبهائم... لا بد من تلقينهم درساً ما»!

تبسّم «سلمان» بظفر قائلاً:

- «طير ظريف»!

حقاً لقد أحسن استخدام أمنيته!



فتح «دكاك» عينيه فجأة...

- لماذا صعدت على متن هذه الحافلة؟

ارتبك للحظة، ثم حاول تحرير عقدة لسانه أخيراً وأجاب:

- رحلة...

- رحلة عمل أم سياحة؟

- عمل...

قالها «دكاك» واستدار إلى الخلف، فوقع بصره على رجل عادي المظهر، هزيل ذي شعر منكوش، لا يعبأ بنظافة ثيابه أو كيّها...

مدَّ الرجل يده ليصافح «دكاك» وهو لا يكفّ عن مضغ قطعة لبان:



- العمر ينتهي والعمل لا! «ثائر جمعة»، والدي أسماني ثائراً تيمناً بقصيدة «محمود درويش» الشهيرة... تلك المتحدثة عن الأمنيات... أتعرفها؟

وبلا تحفظات أنشد بعقيرة قوية متحمسة:

لا تقل لي:

ليتني بائع خبز في الجزائر

لأغني مع ثائر!

لا تقل لي:

ليتني راعي مواشٍ في اليمن

لأغني لانتفاضات الزمن

لا تقل لي:

ليتني عامل مقهى في «هافانا»

لأغني لانتصارات الحزانى!

لا تقل لي:
ليتني أعمل في أسوان حمّالاً صغيراً
لأغني للصخور
يا صديقي! لن يصب النيل في الفولغا



ولا الكونغو، ولا الأردن، في نهر الفرات!

كل نهر، وله نبع... ومجرى... وحياة!

يا صديقي... أرضنا ليست بعاقر

كل أرض، ولها ميلادها

كل فجر، وله موعد ثائر!

وبالحماسة نفسها ومن دون أن ينتظر رداً:

- أنا رسام وشاعر معاً، أعمل في محطة للوقود! معذرة للثرثرة، لم أتشرف باسمك بعد؟

- «دكاك»...

- تشرّفنا!

وسارع دونما سابق إنذار إلى النهوض والجلوس بجوار «دكاك»، قائلاً باستهزاء وهو يأكل راكبة جالسة في حالها بنظراته:

- «تبدو لبؤة شرسة، وأنا أفضّل الرقيقات!»

سأله «دكاك» بحيرة:

- ماذا تعني؟

ونظر صوب المرأة المقصودة، باحثاً عن سبب قول «ثائر» ذلك عنها، وعندما لم يجد سبباً منطقياً واحداً تمتم:



- إنها مجرد حمامة وادعة...

- يا بني كلهن لبؤات يرتدين أقنعة الحمائم الوادعة!

وبمكر أضاف:

- إنها ترتدي السواد، على الأرجح هي أرملة، أراهنك على أنها ستتمنى رجلاً ثرياً كزوج ليغدق عليها!

- كفَّ عن الترهات!

- ماذا؟ ألا يمكن حدوث ذلك؟ إنها أمنية عامة وعملية، ولا علاقة لها بالحب!

- ليس بأسلوب فرض تفكيرك الشبيه بأسلوب محاكم التفتيش!

- إنها مجرد دعابة، دعابة سمجة!

- هي كذلك!

- أحياناً أضايق الناس لمجرد التسلية فحسب! لكنني - ولله الحمد - إنسان صريح، تلك هي ميزتي!

- الصراحة جميلة، لكن وجهات نظرك لا تسرّ...

وتنهّد بحرارة، ثم سأله متظاهراً أنه يهتم:

- ماذا عنك أنت؟ أذاهب في رحلة عمل أم ماذا؟

- عمل... سيغير مجرى حياتي إلى الأبد!

كان يتحدث لهجات عدة في آن واحد، فاحتار «دكاك» في أصل زميل الرحلة هذا، حتى كاد أن يسأله عنه لولا إحجامه في اللحظة الأخيرة، فقد أثار فضوله موضوع رحلة العمل تلك!

سأله باهتمام حقيقي هذه المرة:

- كيف؟ ستعقد صفقة من نوع ما؟

- أجل، وستكون صفقة العمر...

- ستقوم بتهريب بعض الممنوعات؟

ضحك قائلاً:

- أنا شاعر ولستُ تاجر مخدرات!

- ليست صفقة شعر حتماً...

- حتماً لا، فشِعري يتحدث عن المعاناة الإنسانية والآلام...

أتتعهد بكتمان سر صفقة عمري لو أفضيت به إليك؟

- أتعهد...

تلفت «ثائر» يمنة ويسرة قبل إخراجه محفظته الجلدية من جيبه، مستخرجاً منها قصاصة مهترئة ناولها بحذر لـ«دكاك»...

- ما هذه؟

كانت صورة بالأبيض والأسود مقصوصة من عدد قديم لجريدة،

لنصب طولي يمثل رجلاً فارعاً، وجهه يحمل نظرات كلها صرامة وتصميم... كان مألوفاً إلى حدّ ما، لكن «دكاك» فشل في تذكّره...

- هل عرفت من يكون؟

- أكاد أقسم إني شاهدت هذا الوجه من قبل، في الصحف، في التلفاز... لا أذكر!

تبدت الحماسة في نبرة صوت «ثائر» وهو يقول:

- هذا التمثال المقوَّى بالحديد نحته فنان يدعى «شربل فارس» عام ١٩٨٧م...»

- مدة غير كافية لجعله أثرياً...

- طوله ٢٧٥ سم، عرضه ٨٥ سم، سماكته ٤٥ سم، مصنوع من «الفيبرغلاس- بوليستر»، وقد احتاج إلى خمسة أشهر تقريباً كي ينتهي... تحفة عربية معاصرة بكل المقاييس!

- ما شاء الله! يبدو أنك تعرف كل شيء عن هذا التمثال، لكن لمن يكون يا ترى؟

- هذا «ناجي العلي»!

- ««ناجي العلي»؟ رسام «الكاريكاتور» الأشهر وصاحب «حنظلة»؟

- بالضبط! وهذا تمثاله الشهير الذي اختفى ولم يُعرف مكانه إلى يومنا هذا. لقد وُضع أول ما وُضع في مخيم عين الحلوة الشمالي،



حيث نشأ الفنان الشهيد، بعد ذلك أُطلق الرصاص على عينه اليسرى، ومن ثم تمّ سحله وجرّه عقب مدة قصيرة من رفعه في مدخل المخيم، ولم يُعرف بعد ذلك قط إلى أين أخذه سارقوه!

خطر لـ«دكاك خاطر أرّقه، فدمدم بتساؤل:

- وأنت ستستخدم أمنيتك لاسترجاعه؟!

- أنت ذكي يا صاحبي! سأحتفل بيوم ميلادي غداً إن أحيانا الله!

- وماذا تنوي أن تصنع به؟ بيعه؟

- خِلتك ذكياً! لِمَ لا أتمنى الثراء عوضاً عن تلك المعاناة؟

- ماذا إذاً؟ لا أحسبه يصلح لتزيين غرفة الجلوس!

- تمثال الشهيد «ناجي العلي» سيكون مكانه في متحف رفيع المستوى، «كاللوفر» مثلاً!

- أرجو أن تكون هذه دعابة سمجة أخرى...

- لماذا؟

- التمثال الذي اغتاله الصهاينة، تمثال الشهيد «ناجي»، تريد إرساله إلى بلاد الغرب؟!

تحولت لهجة «ثائر» إلى سخرية تامَّة وهو يهتف:



- ضع نفسك مكاني أيها الثائر الوطني وأفدني، ماذا تصنع لو أنك الذي وجده؟

- يجب تدبير عودته إلى مكانه الأصلي، في مخيم عين الحلوة الشمالي...

ردد «ثائر» كلمات «دكاك» باستهزاء جامح:

- يجب تدبير عودته إلى مكانه الأصلي في... لماذا؟! لكي يتم سحله وجرّه من جديد وإطلاق النار على عينه اليمنى هذه المرة؟ وبعدها يتم إخفاؤه إلى الأبد؟

- أعتبر ذلك أفضل بألف مرة من بيعه لجامع تحف راغب في تزيين ردهته!

- ومن قال إني سأبيعه لجامع تحف؟ ألا تنصت؟! قلت بأن تمثال الشهيد «ناجي العلي» سيكون مكانه في متحف...»

- رفيع المستوى، أجل فهمتك! ومن قال إن التمثال ملكك؟ تتصرف به كيفما تشاء وكأنك من قام بنحته؟

قال «ثائر» وقد احتدَّ صوته هذه المرة:

- أنا من سيجده! لا أحد يكترث حين نفقد شيئاً غالياً، وعندما يتطوع بائس مثلي لإيجاده تنقلب الدنيا ولا تهدأ!

إسمع، أنا شاعر ورسام يعشق الرموز الفلسطينية المبدعة لدرجة التعصب!



وأخرج محفظته الجلدية المنتفخة من جيب سترته، وبسرعة طفق يستخرج منها قصاصات وصوراً ملء شعر رأسه الطويل، قائلاً والانفعال بادٍ عليه:

- هاك... «كاريكاتورات» قديمة لناجي العلي، أشعار لمحمود درويش وإبراهيم طوقان وشقيقته فدوى طوقان، قصص قصيرة لغسان كنفاني... رحمهم الله جميعاً! إياك ومحاولة التشكيك بوطنيتي أو...»

- لا بأس، إهدأ قليلاً، أنا لم أرَ أحداً يسافر وفي جيوبه كمٌّ هائل من قصاصات الجرائد!

- أحياناً يدفعنا قهرنا إلى تصرفات لم تكن مطلقاً في الحسبان!

- في هذه معك حق!

أعاد «ثائر» أكوام القصاصات التي أخرجها إلى محفظته، وقبّل صورة تمثال «ناجي العلي» في ما يشابه الاعتذار! ما أجبر «دكاك» على الابتسام لتصرّفه ذاك...

تنهد «ثائر» رافعاً كفّه في الهواء وقال:

- سأزور كذلك صديقاً لي، هو صحفي مهتم بنشر شعري في صحيفته...

- لِمَ لا تتمنى أن تصير شاعراً مشهوراً إذاً؟



- هل جننت؟ هل ظهرت «أمنية» لمحمود درويش أو إبراهيم طوقان؟! ثم ماذا عن تمثال الشهيد «ناجي العلي»؟!»

وبحث في جيوبه حتى أخرج ورقة مطوية ناولها لـ«دكاك» الذي سأله:

- منذ متى وأنت تقرض الشعر؟

- مذ كنت فتى شقيّاً... أرجو أن تقرأ قصيدتي وتعطيني رأيك فيها...

- لست مخلصاً للشعر والشعراء كثيراً، فقلبي ميال إلى الرواية أكثر، لكن مع ذلك:

«بشاعة الهوان في عيون كفيف»... قصيدة للشاعر «ثائر جمعة»:

ويلي! قد مات أبنائي كلهم...

ثمانية هم في عمر الزهور...

كُفَّ بصري من البكاء عليهم...

وبيَدَيّ هاتين دفنت جثثهم...

في ديارهم الجديدة في القبور...

وزوجتي المفجوعة لحقت بهم...



بعد حزن دام لشهور وشهور...

استشهدوا برصاص أحفاد القردة والخنازير...

أهل الغدر والفجور...

وبيتي صيّروه أنقاضاً...

ونسفوا محلي للعطور...

صار رزقي على الله...

ونومي بين أهل القبور...

وسط زوجتي وأولادي...

بقلب صبور...

لعلّني ألقاهم يوماً...

وعلى الصراط يكون العبور...

ويل لأعداء الله ويل...

والدوائر على الباغي تدور...

وبحماسة تساءل «ثائر» متمعّناً في تقاسيم «دكاك» ليرصد أثر شعره فيها:

- ها... ما رأيك؟

- لا أعلم، لا أحسب صديقك قادراً على نشرها لك!



- لماذا؟!

- ليس لأنها لم تعجبني لكن... هلم... أنت تعلم لماذا!

قالها باسماً وهو يتصرف كأن أحدهم يراقبهما، فسحب «ثائر» ورقة القصيدة من يده قائلاً بنبرة جافة:

- هكذا إذاً! الحق معك، الأفضل ألا تُنشر! الأفضل أخذ رأيك الثمين في ما تحب سماعه من أشعار!

- عن ماذا؟

- أخبرني أنت!

وأخرج من جيبه قلماً وورقة، فلم يُزل «دكاك» البسمة عن شفتيه وهو يقول بتظرف:

- يا لهذا الجيب الشبيه بقبعة الساحر!

- بإمكاني تأليف قصيدة في أي موضوع تشاء، كما كان «تشيخوف» يصنع بقصصه القصيرة، إختر موضوعاً فحسب...

تفكر «دكاك» مقرراً التسلي قليلاً... عن الأمنيات؟ لا... عن والده الراقد في المستشفى؟ لا...

- عندما سافرتُ إلى إحدى دول الخليج، كانت لي جارة من السودان تدعى «أم بكر»...

أخذ يدوّن ملاحظات في ورقته قائلاً بنبرة اهتمام:



- أكمل...

- نقلوها إلى المستشفى إثر ألم شديد شعرت به، كان هنالك دم فاسد على ما يبدو، لذا استوجب الأمر إجراء عملية نقل دم نظيف لها على وجه السرعة بعد استخراج الدم الفاسد...

- وبعد؟

- تأخر الدم، تأخر كثيراً... كان هنالك سرير قديم يرقد عليه عجوز طاعن في السن، عنده – ويا للمصادفة – المشكلة نفسها، عملية نقل دم، لكن مشكلته حُلّت في غضون ثوانٍ، وبقيت مشكلة جارتنا عالقة...

- عجوز من أبناء البلد، أليس كذلك؟

- بلى... وصل الدم الطازج للعجوز «المكحكح» والمرأة ما زالت تنتظر، وحينما نطقت آخر كلماتها خرجت أحرفها متقطعة وبصوت متحشرج، كما لو كانت تسجيلاً رديئاً صدر عن شريط «كاسيت» وُضع في مسجلة عتيقة!

ماتت المخلوقة والدم لم يصل! رحمة الله عليها...

- انتهيت! اسمع...

- بهذه السرعة؟ لا بأس، كلي آذان مصغية...

- عجيب أمر هكذا دنيا، أتراه العيب فيها أم فينا؟



كل يوم نرى من صنوف العذاب ألواناً وألواناً، ونقول يا رحيم يا رحمن نجّنا من الذل والهوان!

أين كان البشر لما ماتت «أم بكر»؟

كلا لم تمت شهيدة في فلسطين، ولا في قصف أفغانستان...

ولا ضحية الحروب الأهلية في اليمن أو لبنان أو السودان...

ولا في حادث سيارة أو تحطم طائرة...

المرأة قُتلت يا خلق الله في مشفى عربي في بلد عربي...

بالرفاهية ينعمون، لكن لآهات «أم بكر» لا يصغون!

لم تكن ابنة ذاك البلد لكن به كانت تهيم...

وعلى سرير قريب منها يرقد ابن البلد، عجوز في التسعين!

له استخرجوا الدم من تحت الأرض كأنه بترول...

ولها قالوا: اصبري، الدم قادم في الطائرة منقول!

قالت: يا صبر «أيوب»...

وقلنا: يا صبر «أيوب»...

ومن على سريره وثب ابن البلد صحيح البدن بعدما عالجوه دونما أجر...

ومن على سريرها لم تقم المرأة أبد...



واحسرتاه! ماتت «أم بكر» في ذاك البلد...

وأي بلد ذاك البلد!

نظر له وثغره ينطق ببسمة متوّجة بالنصر... وسأله:

- ما رأيك؟

- لا أدري حقاً، جميل لكن... ليس عميقاً لتلك الدرجة!

قال وكأنه تلقى صدمة أو صفعة:

- ليس عميقاً؟!

- شعرت كذلك أن ثمة مقاطع تألفها الأذن كقولك: بالرفاهية ينعمون، لكن لآهات «أم بكر» لا يصغون!

- مقاطع مألوفة؟ أتتهمني بالاقتباس يا هذا؟!

- لقد فهمتني بصورة خاطئة، ما قصدته أن...

- فهمت قصدك، ورسالتك وصلت... شكراً!

وبدا فاتراً وممتعضاً إلى أقصى حد، وهو يدسّ الورقة في جيبه السحري، فهمهم «دكاك» باسماً:

- كل ما فعلته هو قول رأيي بمنتهى الصراحة، تماماً كما تصنع أنت في شِعرك... أليست الصراحة ميزتك كما زعمت؟»

- وصراحتك لم تعجبني... شكراً!



وبرغم ذلك بقي في مكانه إلى جوار «دكاك»، الذي تجاهله ملتقطاً مجلة سينمائية، كان يحملها في جيب حقيبته الجلدية الخفيفة التي وضعها عند قدميه، وانشغل بتصفّحها بوجه خالٍ من التعابير...

سطع البرق في الخارج، أتبعه هزيم الرعد باثّاً في نفوس الركاب القلائل بعض الرهبة، فنظر «ثائر» من خلال نافذة الحافلة التي بجوار «دكاك»، متأملاً الغيوم الداكنة والتماعة البرق في ما بينها ببصر شارد...

- كلما ركبتُ حافلة تخيلتها طائرة... وكنتُ دائماً أتخيل ملك الموت راهباً متشحاً بالسواد، وجهه في الظلام، ويتربع على جناح الطائرة بكل هدوء وسكينة وسط عاصفة مخيفة كهذه...

تأمل «دكاك» من النافذة هو الآخر وقد أثار الوصف مخيلته...

كان يفكر في عديد من الأمور بخصوص زميل رحلته هذا، أراد سؤاله مجدداً عن سبب تفكيره بأمنية تبدو مقارنة بحاله التعسة هذه!

وهنا رفع «ثائر» يده ناظراً إلى الساعة الرخيصة التي يرتديها، ثم قال بتصميم:

- هذه هي محطتي!



الليل أرخى سدوله...

وصل «دكاك» أخيراً إلى هدفه...

دخله، وسار بين جموع السكارى غير مبالٍ بالشتائم بالغة البذاءة التي تعرّض لها... بعض النسوة ثملن، فصعدن على المناضد وشرعن بالرقص المترنح، وسط تهليل رواد هذا المكان الموبوء وتصفيقهم وتصغيرهم...

اقترب من الساقي الكهل، وقال له بصوت مرتفع كي يتمكن من سماعه وسط كل ذلك الهرج:

- أبحث عمن تُدعى «فريدة»، هي نادلة عندكم...

أشار الرجل إلى زاوية ما، ثم استأنف مسح الكوب الذي بين



يديه، فنظر إلى تلك الزاوية نصف المعتّمة ليجد بقايا إناث جلسن في شبه انعزال، يدخّن ويشربن من دون إزعاج من أحد...

اقترب من طاولتهن حيث غيوم الدخان المتصاعدة من سجائرهن، وبتؤدة قال مخاطباً إحداهن:

- كيف حالكِ «فريدة»؟

نظرن إليه لا مباليات، فكرر سؤاله بتروّ أكثر...

أخيراً هزّت إحداهن جارتها التي دفنت وجهها بين ذراعيها وغرقت في سبات عميق، قائلة لها بملل:

- ثمة من يسأل عنك يا فتاة، قومي عليك اللعنة!

بصعوبة رفعت الفتاة وجهاً شاحباً ذا هالات سوداء أسفل العينين، فقالت مخاطبة العدم:

- ماذا؟

تساءل «دكاك» متمعّناً في وجهها:

- أأنتِ بخير؟ هذا أنا!

نظرت إليه ببصر مشوَّش أبله، ومن فمها المفتوح هبط اللعاب على هيئة خيط، قبل أن تتساءل باستهجان:

- لِمَ صار العالم مكاناً بغيضاً هكذا؟



ردّت فتاة نحيلة بالغة القبح كانت تجلس ملاصقةً لها:

ـ العالم جميل، لكن البشر هم البغيضون!

ـ لِمَ نتعلم من الحيوان شراسته فقط؟

- حتى شراسة الحيوان مبررة، فهي إما للقمة العيش وإما لحماية الصغار...

- هلمّوا جميعاً نشرب نخب الحيوانات إذاً!

كان حواراً عجيباً... خصوصاً في هذه الأيام التي صار فيها العالم محتملاً بفضل الأمنيات السحرية!

تُرى منذ متى وهؤلاء الفتيات يثملن؟ أتراهن سمعن حتى بما حل بالعالم؟

تساءل بالنبرة الهادئة نفسها:

- هل بإمكاننا التحدث خارجاً؟

- هل تعلم أنت لِمَ نعيش حياة كريهة حتى الجرذان لا تحسدنا عليها؟

- بسبب الأوباش!

كذا ردَّت أكبرهن سناً وهي تجرع من كأسها قبل أن تتجشأ بلا تحفظ، فتساءلت «فريدة» ورأسها يدور بلا هوادة:



- عن أي أوباش تتحدثين؟ نحن أم هم؟

وغرقن في موجة من الضحك الهستيري!

* * *

قالت «فريدة» محاولة إشعال سيجارة جديدة وابتسامتها تملأ شفتيها الداكنتين:

- الأوباش! هذا واحد منهم يا بنات لو تعلمن!

كانت ابتسامتها تتحول إلى دموع وألم، ومن بين دموعها السخيَّة همست بضعف:

- ما أعذبك أيها الحزن!

ضحكت رفيقاتها وإحداهن تنطق باستهزاء:

- «فريدة» صارت شاعرة!

ضربتها «فريدة» بمرفقها قائلةً بسخط:

- «أتمنى أن تموتي، وأريده موتاً مباغتاً فيه الكثير من العنف!

شهقت تلك الرفيقة قبيل قولها ضاحكة:

- تأكدي ألا تسبق تلك الأمنية شمعة فتضيّعينها إلى الأبد!

- الأمر يستحق!



- ألا تبّاً لكِ! أليس من المفترض أن تعملي؟

- أخبرتكِ للمرة الألف أنني استقلت! اليوم أنا زبونة، سئمتُ تلقّي الأوامر وتحرشات الزبائن وتساؤلاتك المكدّرة للمزاج... حين يجيء وقت التمني سأتمنى امتلاك المكان كي أطردكن شرَّ طردة!

همس «دكاك» من دون أن يغيّر من وقفته أو هدوء نبرة صوته:

- أريدكِ في أمر خاص...

قالت المرأة الكبيرة بجذل ساخر:

- يا للعاشق المتيم!

تجاهلها مخاطباً «فريدة» بقوله:

- في الخارج، لن نستغرق الكثير من الوقت...

- كل شيء بثمنه، وأنا وقتي ثمين!

كذا ردَّت ساخرة، فأردف:

- سأدفع بالطبع...

- كم؟

- كم تريدين؟

- لا أريد نقوداً يا صغيري، بل تسلية، فالملل يكاد يخنقني!

- ما الذي تريدينه؟!



- ما الذي تقترحنه يا بنات؟ إنها ليلتكن!

هتفت إحداهن بحماسة:

- لنجعله يشاركنا الشرب حتى يثمل، وبعدها ندفعه إلى الرقص!

- وكأننا لا نرى زبائن ثملين وراقصين طوال الوقت! لديّ فكرة أفضل، كل منا يذكر حيواناً وعليك أنت بتقليد صوته وحركاته بطريقة ترضينا، اتفقنا؟

تساءل مهموماً:

- لِمَ تفعلين هذا؟

- لا أظنني طلبت منك تقليد حمل وديع! والآن أريدك أن تقلّد نعيق الغراب اللّعين... لا تنسَ أن ترفرف بذراعيك!

ـ غاق! غاق!

ـ من تخدع بهذا الهراء الذي تؤديه؟ أريدُ سماع ما تقوم به بوضوح...

ـ غاق! غاق! غاق!

تنبّه إليهم أحد الزبائن، قبل أن يلكز ذراع صديقه لينبّهه إلى تلك الفقرة المسلّية!

وسرعان ما صار محطّ أنظار جميع السكارى! نظرات من كل حدب وصوب التهمته التهاماً، لكنه لم يكترث لأحد...



ـ والآن إنبح ككلب مسعور! وأخرج لسانك والهث كما يفعل!

ـ هاو! هاو! هاو!

كاد الجميع ينفجر من شدَّة الضَّحك لما أخرج لسانه ولهث كالكلب، في حين صاحت صديقة «فريدة» الكبرى في حماسة:

- قلّد لنا الحمار!

وسرعان ما سار على أربع وهو ينهق!

صاحت «فريدة» ساخرة وهي ترفع كأسها بيد وتشير إليه بيدٍ أخرى:

ـ أمنكم من يرغب بامتطاءِ هذا الحمار؟

تعالت أصوات الضحكات، وصاحت الفتاة الناحلة ذات الوجه القبيح وهي تنهض متثاقلة:

ـ أنا سأفعل! عاونوني...

ـ تفضلي يا صاحبة الجلالة!

عاونها رواد الخمّارة على السير إلى حيث يقف على أربع، وبوقاحة جلست على ظهره وسط التصفيق والتهليل والصفير، ثم صاحت وهي تشير بسبابتها:

- إلى الأمام!



انصاع للأمر، فسار إلى الأمام بضع خطوات قبل أن تتقدم زبونة بحجم بقرة وهي تهتف متحمسة:

- لنرَ ما إذا كان قادراً على حملي!

وهكذا تحوّل الأمر إلى منافسة في حمل أثقل الأوزان، حتى إنهم راهنوا بالمال على مدى قدرته على التحمّل! ووجد نفسه عرضةً لحمل أثقل زبائن الخمّارة من رجال ونساء واحداً تلو الآخر، لكنه لم يعترض على الإطلاق...

لقد قام بحمل جميع الزبائن من أصحاب الأوزان الثقيلة والسير بهم، عندما صاحت صديقة «فريدة» الكبرى:

- لديَّ فكرة، لنضع مزيداً من الأوزان على ظهره! هذا كفيل بجعله يستسلم، لنبدأ بصندوق زجاجات البيرة ذاك...

رحّبوا جميعاً بالفكرة، وبالأخص الذين خسروا رهاناتهم في مسابقة الأوزان البشرية، لكن «فريدة» رفعت صوتها بصرامة:

- «كفى!»

نظروا إليها مستنكرين، وقالت صديقتها مستغربة:

ـ أنتِ لا تقصدين ذلك بالطبع بعد أن صار هنالك مكسب من وراء هذه اللعبة...

ـ لِمَ لا تخرسين فحسب؟



ـ ماذا قلتِ؟!

ـ قلت: اخرسي! ماذا؟ أأهنتُ كرامتكِ الزائلة منذ أمد؟!

وبوجه قُدَّت ملامحه من صخرٍ، مدّت يدها إليه قائلة:

- هلمّ بنا...

كان يشعر بآلام مروعة في ظهره كأنما انشطر إلى نصفين، في حين صرخت «فريدة» بغضب عصف في الوجوه المحملقة:

- «فيم تحديقكم هكذا يا حفنة الأوباش؟»

وبمعاونتها غادرا معاً المكان الموبوء...

* * *

في الخارج قالت له ساهمة وهما يسيران جنباً إلى جنب:

ـ سأسامحك إذا ما حاولت الانتقام مني!

ـ لا بأس...

أشعلت سيجارة وهي تقول كأنها لم تسمعه:

- أفترض أنك الآن حاقد عليّ لدرجة الرغبة في ذبحي...

فكرر:



ـ لا بأس...

ـ يا لي من حقيرة!

ـ أتحقّرين نفسك بهذا الشكل دائماً؟

ـ عشت حياة حقيرة طوال عمري... أيكفيك ذلك؟

ـ لماذا يخيل إليّ أحياناً أن كل من على الأرض عاش حياة حقيرة؟

لم تردّ، ظلت تنفث الدخان بصمت، فقال مبدّلاً الموضوع:

ـ أين الضنكي»؟



توقفت عن السير، مهمهمةً وهي توثق بساعديها أمام صدرها:

ـ لِمَ تبحث عنه؟

ـ لا شأن لكِ... أريد معرفة مكانه فحسب...

ـ كل تلك المعاناة والمذلة في الداخل كي تعرف مكان مختطف صغارٍ حقير؟!

ـ أين مكانه الآن يا «فريدة»؟!

كان لجوجاً بصورة لم تعهدها فيه من قبل، فاستخرجت من حقيبتها قصاصة ورق، سجّلت عليها العنوان، ثم ضحكت رامقةً إيَّاهُ بنظرة حقد، وهي ترمي القصاصة أرضاً، وتطأها بطرف حذائها قائلة بازدراء:



ـ ها هوذا! لكن دعني أخبرك شيئاً كنت متلهفة لإخبارك إياه، اليوم هو يوم ميلادي، وبما أنها مناسبة تستحق الاحتفال فقد استخدمت شمعتي في التمني حقاً داخل حمام النساء! ولحسن الحظ لم أنتظر كثيراً كي تظهر لأتسلى بك وأصنع منك أضحوكة أمام الجميع!

بلّغ سلامي إلى جميع أفراد العصابة الحقيرة! واستدارت عائدة أدراجها إلى داخل الملهى...

* * *

فيما بعد:

ستتمنى إحدى رفيقات «فريدة» في الشلة يوم مولدها مخزوناً لا ينضب من المخدرات التي يتعاطينها بنَهَم، وبكرم حاتمي سينغمسن به حتى النخاع...

وبعد ثلاثة أشهر، ستلقى «فريدة» حتفها إثر جرعة زائدة داخل شقة غير مؤثثة، وبين رفيقات الشلة الغائبات عن دنيانا...

* * *

مرّت الأحداث أمام عينيه سريعة وكأنها شريط سينمائي...



رأى نفسه معها، كما كانا في الماضي لما تعارفا في إحدى حفلات الليل الصاخبة في هذا الملهى الرخيص، يتضاحكان، يتمازحان، يلهوان ويعبثان من دون رقيب أو حسيب، يحاولان التوقف لولا أن جسديهما يطالبانهما بالمزيد...

بدأ عذابه الخاص بالخروج والتحرك، كان متمثلاً بتدميره خطوبة شبه ناجحة وإحلال فتاة رخيصة محل خطيبته! مهما كانت درجة جنونه قليلة أو كبيرة فهي ببساطة تثير دوافع الشك حول صحة ما يراه من حقائق عن حياته، وما جرى لها من أحداث...

في البداية كان الهمس، ثم تحوّل إلى أصوات عالية، عرف من خلالها أنه لم يعد هامد العقل متبلد الأطراف، كانت عاصفة الغضب قادمة...

- ساعدني أرجوك!

تلفَّت بخواء، وأنصت شارداً إلى تضرعات ذاك المشرَّد الزاحف أرضاً...

كان كهلاً نَتِنَ الهيئة، وقد استخرج جيوبه كاملة كي يري الناس كم هي خاوية ممزقة مسودّة...

لم يفهم «دكاك» سبب شعوره في تلك اللحظة برغبة عارمة في لكمه على بقايا أسنانه مباشرة... هل كان ليصنع ذلك في الماضي؟

ماذا عن الآن؟!



أخرج من جيبه وريقةً مالية دسَّها في يد الكهل الممدودة المتلهفة، قائلاً له باستهزاء مرير:

- لِمَ لا تتمنى أمنية؟

أمنية: من شرنقة إلى فراشة.... والعكس صحيح!

قد يكون اسمه في الماضي «مشرد»، مجهول العمر والهوية، عنوانه كان حاوية القمامة الصدئة الزرقاء ذات الرقم ١١٢ المطلي بصبغ أحمر قانٍ، في الركن الخلفي لمطعم المأكولات البحرية...

لن تضيّعه ذاكرته أبداً، فلطالما اعتبرت القطط الضالة المكان ناديها الخاص، حيث كانت تثب ـ بلا خجل ـ في حجره وعلى رأسه، كي تنبش باحثة عن قوت يومها قبل أن يسبقها إليه...

تذكّر عاداته كل صباح بتفقّد طعام الإفطار، أحياناً يسعفه الحظ بتناول كسرة خبز يابسة كالخشب، أفضل من البدء ببقايا سمكة...

بعد الإفطار، اعتاد أن ينبش من حوله باحثاً عن صحيفة جديدة نسيها صاحبها هنا. تعلَّم القراءة بعسر من الصحف، أدرك أن



الدنيا أكبر من الحاوية ومشاكلها أضخم من مشاكله، لم يحدث أن اكترث... فليهوِ الوطن بذاته في قعر السعير بفساده وفقرائه وأثريائه، المهم أن يجد قوت يومه قبل أن تتحجر معدته، وملاءة تدفئه قبل أن تتجمد أوصاله...

تذكّر خواطره ومغادراته المسرعة أيام وصول عمال البلدية لإفراغ الحاوية... الوداع يا بقايا السمك والصحف المسلية، سأفتقد كل شوكة وكل صفحة مهترئة ملوثة بالزيت أو البصاق، لكنهم سيعوّضونني عما قريب بأشواك جديدة وأوراق مهترئة جديدة...

أنا المشرد المحنك، من النوع الذي لا يبيت في حاوية خضراء لأنها تعني «إعادة تصنيع»! ما معنى أن يجلس المشرد في حضنها منتظراً الزجاج المهشم وبقايا الخشب وأكواب البلاستيك وزجاجات المرطبات الفارغة؟ لا بد من حساب الطعام أيضاً... بعض المشردين يتظاهرون بالذكاء مؤكدين أن القوت يُرمى في كثير من الأحيان داخل تلكم الحاويات، لكنه لم يكن ليجازف بليلة واحدة داخل إحداها...

المشرد المحنك يعي أن الحاوية القريبة من مطعم هي الأفضل، أما الرائحة فمحتملة منذ أول خطوة له في هذه الدنيا العكرة...

تذكّر أظفار الماضي وشعره المقمل، الأولى سوداء طويلة



كمخالب الغيلان، والثانية كفروة جرباء... نتنة! ألا تبّاً! من يكترث للّباقة عندما يصطبح المرء بالقمامة وينام آخر الليل في أحضانها؟

من القمامة وإلى القمامة، هذا مصير كل مشرد... كذا رسخت الفكرة في ذهنه، كان هذا من الماضي، كلّه... واليوم بات مستعدّاً لتقبّل فكرة وجود الأمنيات، ربما كانت هي ما انتشله من الحاوية إلى براثن دار «سوليتير» الراقية، وصاحبتها مدام «ميليزين» الساحرة...

* * *

كانت المهنة التي اختارتها مدام «ميليزين» له مضحكة إلى حدّ الذهول، كيف لا وهو مشرد سابق اعتاد خشونة الحياة وسقمها؟

كان عليه الانتقال من الجحيم إلى النعيم مرة واحدة، من دون مقدمات، كأنه ربح أعظم «يانصيب» في حياته برمتها، ليس مبلغاً أو سيارة حتى، بل رغد العيش الذي لم يزره حتى في أكثر أحلامه وردية ورهافة...

تذكّر ـ بحنو ـ لقاءه الأول بها، عندما جلس على قارعة الطريق وهو يتأمل تلك الصورة... أو بالأحرى غلاف مجلة أزياء مهترئة، حيث تموضعت عارضة أزياء رائعة الجمال بثياب صيفية خفيفة تُظهر أكثر مما تستر!

ثمة ما جذبه إلى تلك الصورة، جاعلاً إياه يطلق أحرّ تنهيداته....



أمر متعلق بالمهنة قبل الأنثى نفسها، ثم المزيج الذي خلب لبّه في ما بينهما!

فيما بعد سيعترف بأنَّه كان مجنوناً، لكن الآن...

تنهّد، وأخرج بتردد الشمعة الصغيرة المستعملة التي حصل عليها بسهولة، فالجميع صار يتمنى، ينفخ، ثم يلقي بشمعته بلا مبالاة على قارعة الطريق!

من حسن حظه أن اليوم يوم ميلاده، والأفضل من ذلك أنَّه يتذكره برغم كل شيء... لكنه يخاطر اليوم بفقدان أمنيته التي كان من الممكن أن تنقذه من الجحيم الذي يقطنه، وذلك كله لأجل رغبة عجيبة... عجيبة للغاية!

أوقد الشمعة، تمنى، ومن ثم نفخ ليطفئ الشعلة الضئيلة...

* * *

لم يلتفت كثيراً إلى السيارة السوداء الفارهة التي توقفت بالقرب منه إلاَّ عندما هبطت نافذتها العاكسة كالمرايا، وارتفع من داخلها صوت أنثوي قوي ناداه:

ـ أنتِ!

في البداية حسب النداء لشخص آخر خصوصاً أنه بصيغة

المؤنث، ولما تأكد بأن النداء موجّه إليه نهض بتوجس متحسّراً من أنه لا يملك في تلك اللحظة مرآة!

وببطء حذر سار ناحية النافذة ليجد امرأة مسنة، لكنها لا تزال حسناء، من طراز «جولي كريستي» و«صوفيا لورين» و«كاثرين دونوف» و«ميرفت أمين»! اللواتي يكبرن وتكبر جاذبيتهن معهن...

- تحت أمرك...

- اركبي!

فركب....

كانت السيارة مكيفة، ذات رائحة هفهافة احتملت عبق عطر غامض لمنخريه...

- ما اسمكِ؟

- «جماح»...

- وجهكِ جميل يا «جماح»، وجسمكِ مشدود ممشوق، لكن صوتكِ مضحك، فهو أقرب إلى صوت رجل!

شعر بارتياب القطط المشردة التي تنام معه... أمعقول أن أمنيته تحققت بلمح البصر؟

وعندما نظر إلى مرآة السيارة الجانبية تماسك بعجز، لكن فمه



ظل مفتوحاً طيلة الطريق بغير تصديق... لقد تحققت أمنيته، وبأجمل صورة ممكنة!

وسرعان ما توقفت السيارة بالقرب من مطعم للوجبات السريعة، فابتاعت «ميليزين» له وجبة كاملة من الدجاج المقلي والبطاطس والشراب المخفوق، وأنزلته عند الرصيف التالي، فما إن ترجَّل والحيرة تملأ سحنته حتى نادته مرة أخرى. نظر إلى الوراء فرأى إصبعين يمتدان من النافذة المفتوحة بالكامل هذه المرة...

تناول من الإصبعين المضمومين بطاقتها ذات الشعار الشبيه بأوراق اللعب، ثم وضعت المرأة نظاراتها الشمسية لتحجب عينيها، وبثقة قالت:

- تعالي يا «جماح» إلى هذا العنوان... الليلة!

ثم رحلت من دون أن تزيد حرفاً على ما قالته...

* * *

في دار «سوليتير» اكتشف كيفية عمل عارضات الأزياء مع الوكلاء الذين يكونون حلقة وصل بين العارضات والعملاء، حيث يأخذ الوكيل نسبة كبرى من أرباحهن، فهو مسؤول البحث عن عارضات بوجوه جديدة، وتدريبهن على العمل وتقديم النصائح التي تنفعهن في حياتهن الوظيفية...



تعمل العارضات تحت ظروف مختلفة، فحياتهن مليئة بالشهرة والبريق، حيث تكون مواسم عروض الأزياء في مناطق مريحة، قد تكون مواقع التصوير باردة أو رطبة لو كانت خارجية في الهواء الطلق، وقد تكون جداول أعمالهن مزدحمة وفيها متطلبات كثيرة، ويجب أن يكنّ على اتصال دائم بالوكيل كونهن يمضين أوقاتهن بعيداً عن الأهل والأصدقاء لكثرة السفر. العمل مرهق خاصة لدى التغيير المستمر للملابس خلال العرض في زمن قياسي...

لا مشكلة في هذه النقطة، فهو بلا أهل أو أصدقاء يسألون عنه!

قالت «ميليزين» له وهو يراقب ـ بوجه محمر ـ العارضات النحيلات اللواتي وقفن بثيابهن الداخلية أمامهما في غرفة تبديل الثياب:

- أنجح العارضات يُصنّفن درجة أولى، يحملن أوسمة المشاهير وتُستخدم عادة صورهن على أغلفة المجلات، وفي التقاويم السنوية، وأشرطة اللياقة البدنية، إلى جانب الظهور في الأفلام والبرامج التلفزيونية والمطبوعات المنشورة. يحضرن المناسبات التلفزيونية ويقدّمن الإعلانات والدعايات والحملات الترويجية لبعض المنتجات...

وخلال جلسات التصوير يقمن بأداء وضعيات مختلفة كي يتم التقاط صور لهنّ بالملابس والمنتوجات المراد عرضها... تتعامل العارضات مع مصورين بغاية الاحتراف، ولكل واحدةٍ اختصاصي



شعر و«ماكياج» خاص بها لإكمال العمل المطلوب، والظهور بالشكل المتكامل الذي يغري بشراء المنتوجات المعروضة، ويتم العرض في أماكن عدة مثل المعارض وعلى خشبات المسارح...

ثمة مدارس خاصة للعارضات حيث يتم تعليمهن وتدريبهن على الوقوف تهيئةً لجلسات التصوير. ويفضل الكثير من العملاء العمل مع صاحبات الخبرة القليلة بلا تشجيع على دخول مدارس خاصة حيث يبحثون دائماً عن الوجوه الجديدة غير المحترفة شريطة أن تكون فاتنة!

كان العمل دائراً على قدم وساق، وتبع «جماح» مدام «ميليزين» التي تجاوزت عدداً من موظفيها الذين يتراكضون بدفاترهم ذات الملاقط المعدنية، قائلة بجديَّة:

ـ ستشهد الدورة الجديدة من العرض مشاركة مهمَّة لأبرز مصممي الأزياء الهنود، الذين سيعرضون أرقى مجموعاتهم من أزياء العرائس التقليدية والرسمية العربية والهندية، فكوني مستعدة!

- لماذا؟

توقفت ملتفتةً إليه، وداعبت خدَّهُ - الذي صار طريّاً بضّاً - بأظافرها الطويلة القرمزية، قائلة بابتسامة مرحة:

- لتعرضي بعضاً من تصاميمي طبعاً! يا لكِ من فتاة ساذجة!

* * *



في خضمّ عجلة الحياة الدائرة على قدم وساق، وفوق جسر طويل مطلّ على المياه الشفافة المملة، ركعت «جفرا» كي تلتقط قطعة نقدية وجدتها على الأرض... لفتت التماعة القرش بصرها، ونظرت حولها كي تتأكد من أن أحداً لا يراقبها، ثم وبحنكة تناولته لتدسّه في جيب القميص العلوي... كانت مرتدية بدلة ذكورية سوداء، فوق قميص أبيض متّسخ ومجعّد بعض الشيء، بدت مهلهلة، وجميلة، باردة العينين، منكوشة الشعر...

ما شعرت به في تلك اللحظات العصيبة كان الخواء ولا شيء غيره...

كان حلمها حيّاً، وتعلّقها بالرقص كان غراماً...

ثم ضاع الحلم، فهي اليوم لا تملك أي شيء لتعود إليه، وخصوصاً إذا التفتت إلى الخلف، لكن بنظرها إلى الأمام فسيتبقى لها شيء... أو بقايا شيء! لأنه كل ما تملكه الآن، أما عن بقية الأشياء فسرّها كامن لدى الذي صنع بها ما صنع، وستسأله عن السبب في الوقت المناسب...

كان يجب أن تحيا لهدف وإلا جُنّت...

* * *

و«جماح» لم يعد واقفاً على سور الجسر الممتد...



كان يتأهب لإلقاء نفسه، فبدنه يتصرف كجثة ونظراته خاوية مذهولة... عندما ظهرت «جفرا» بغتةً لتقبض على يده بحزم وتجذبه ليهبط أرضاً!

الخدوش والجروح مرتسمة في كل شبر من جسده، تُماثل «ستيغماتا»، تلك العلامات الدامية التي يدّعي البعض ظهورها بطريقة مشابهة لجروح أطراف المسيح في صلبه!

كثر يعزونها إلى عوالم الميتافيزيقا وحالات التلبس الشيطاني، لكن «جفرا» عزت الجروح والعلامات في جسد الفتاة التي أنقذتها إلى ما هو أشرّ من شياطين إبليس قاطبة!

قالت وهي تصب القهوة للفتاة المنغلقة على نفسها:

ـ لا أعتقد أن الانتحار وُجد لحل عُقد ذنوب لم نرتكبها... ليتنا ندرك أنه وقتما نُقدم على ارتكاب الذنب في حق النفس سوف يلحق بنا العقاب بشكل أو بآخر... من السهل الظن أنّه لا يزال هناك تسامح ومغفرة في هذه الحياة... لكن الحقيقة أن العقاب آتٍ لا محالة، أحياناً يطاردنا وأحياناً نزحف إليه... لكنني أحسب أن الانتحار يزيد من تعقيد المشكلة!

الفتاة تفرك ذراعيها برداً وخوفاً، فاشتدت نبرة «جفرا» قسوةً:

- هل نريد أن نطهّر عقولنا من التفكير في هذه الذنوب؟ أم نستمتع بالعذاب الذي تقدمه إلينا؟!



قالتها متذكّرة بأسى تلك الفتاة غريبة الأطوار، التي عاشت مع والدتها الميتة الحية، وزوج والدتها الصموت البارد في بيت على أطراف المدينة. كانت «جفرا» تعلم حقيقة التطور الذي طرأ على حال تلك الفتاة يوم بدأت جرائم الاغتصاب كل ليلة، فوالدتها التي عانت الإهمال من قبل زوجها سلكت سلوكا شاذّاً، عندما اختارت أن تتستر على جرائمه الشنيعة التي دنّست ابنتها من دون أي سبب سوى أنها مجرد فتاة واهنة فحسب!

احتقرت الفتاة بدنها، فقررت يوم ميلادها أن تقلب الموازين لمصلحتها، وليذهب حلم الرقص إلى الجحيم!

وفي أحد أجمل فصول القصة، تحولت الضحية إلى جلاد في أجواء مأسوية، حيث اكتسبت قوة الذكور وقساوتهم! فحانت لحظة الانتقام!

أحرقتهما معاً، والدتها وزوجها القذر! ووقفت خارجاً كي تتفرج باستمتاع على بيتهم القديم المحترق!

ما زالت تذكر ما قالته في تلك الليلة لنفسها بارتياح:

- اليوم تحررت منهما، كان يعبث بما هو ليس له، بما يخصني أنا وحدي، وكانت هي تتفرج بصمت راضٍ!»

كان انتقاماً ملتهباً مدمراً بارداً عميقاً صاخباً!

* * *

الفتاة التي أنقذتها «جفرا» من على الجسر ترمق منقذتها بنظرات خاوية، ما دعاها إلى الاسترسال بصوت هادئ هذه المرة:

- هل يُعتبر التفكير في أنه لا يزال هنالك حِمْلان في هذا المجتمع ضرباً من الجنون؟ هل أصبح من الصعب أن ينكشف الذئب حتى تلمع أنيابه؟ نظن أنه بإمكاننا كشف الحقائق المدفونة خلف الأقنعة... لكن هذه الحقائق ما هي إلا أشباح، والقناع أصبح الوجه الحقيقي لها!

وهنا ردّت الفتاة بصوت مسموع امتلأ مقتاً وكراهية:

- لا، لم تختفِ الحملان من المجتمع، لكن اعتداءات الذئاب أجبرتها على أن تنمو لها أنياب... فبات من الصعب علينا التفرقة بين الخير والشر!

قالتها بمقت، بكراهية وبغض، لكن ليس هذا ما أثار دهشة «جفرا»... بل نبرة الصوت التي سمعتها تصدر عن الفتاة، خُيّل إليها أن هذه الأنثى تتحدث بعقيرة أقرب إلى الذكور لا تكاد تمتّ بصلة إلى وجهها الحسن!

قالت الفتاة الحسناء بعقيرتها الذكورية المريرة:

- قد أكذب لو قلت إني بحثت عن فرصة ثانية، عن صديق أو شخص يفهمني ويقدّر ظروفي الأليمة التي دعتني إلى تمنّي أمنيتي!

أنا يائسٌ إلى أبعد الحدود! يائسٌ إلى درجة توقفي عن التفكير



في أي شيء، لم يعد وجهي لي أو جسمي لي، كياني صار بمجمله آخر!

لم تقوَ «جفرا» على تجاهل السؤال الذي ألحّ على ذهنها بشدة، فهمست به معقودة الحاجبين:

- «هل تتظاهرين بأنكِ أنثى؟ أعني... لِمَ تتحدثين بضمير المذكر دائماً؟!

كانت الفتاة الآن كالميت «إكلينيكياً»، لا يوجد أمل كي تدبّ فيها الحيوية مرة أخرى، لكنها ستظل إلى أمد غير معلوم حية اسمياً فقط.... قد تحدث في حالتها طفرات قليلة جداً على فترات متباعدة، بعضها قد يبشّر فعلاً ببارقة أمل، والبعض الآخر قد لا يعدو مجرد سراب زائف...

قالت الفتاة لـ«جفرا» بتعابير وجه ميتة تماماً:

ـ أعلم قصدكَ بالضبط!

لكن التساؤل زاد عن حده لدى «جفرا»... لماذا أشارت الفتاة إلى نفسها بصفة ذكورية عندما قالت «يائس»؟ كذلك لماذا صوتها صوت ذكر يائس؟

لماذا شعرت على اختلاف شخصيتيهما ولكلٍ منهما مشكلته الخاصة - والعجيبة - بأنهما وجهان لعملة واحدة؟ كلٌّ منهما غريب

عن جسده، يشعر بالوحدة والتعاسة، وإن اختلفت طريقة كليهما في تعاطي الحياة عن الآخر؟

أمسكت الفتاة قدح القهوة بيد واحدة بينما قبضتها مسترخية على المائدة. جلسة ذكورية حقة وخصوصاً أنها جالسة بساقين متباعدتين. «جفرا» كانت تتصرف كل التصرفات الممكنة لأنثى، برغم تمتّعها بوجه وبدن ذكوريين!

قالت بأقسى درجات المباغتة:

- الانتحار لن يحلّ العقدة، والعقدة يجب أن تُحل ولو بالقطع المشوّه...

ظلت الفتاة صامتة، فتابعت «جفرا» بنبرتها الباردة:

- لو كان الانتحار حلاًّ لكنتُ أول من ينتحر!

وبنقلة أريبة انتقلت «جفرا» إلى حكاية فتاة كانت تتمنى أن تصير راقصة الباليه الأولى، لولا زوج والدتها الحقير الذي ترك قذارته عليها كل ليلة، وزوجته - التي هي والدتها - صامتة بلا اعتراض... عندئذ تحوّل كل شيء بفضل معجزة، شمعة وأمنية أعادتها إلى الشرنقة، كي تخرج منها قملة بدل الفراشة... وبذلك تحوّل الحلم الوردي الجميل إلى أمنية انتقام نارية!

اتّسع بصر الفتاة في خطورة حقيقية، ولاحظت «جفرا» أن



قبضتها ازدادت احمراراً، فأدركت أن حدسها وضعها في منتصف الطريق الصحيح تماماً...

قالت الفتاة ببصر زائغ، وشفتها السفلى ترتعد بلا توقف:

- اسمي «جماح»، ويبدو أن الأقدار شاءت وضعنا معاً في سلة واحدة!

* * *

في أعماق الشوارع المظلمة سارا معاً، بعيداً عن مجتمع عاشا داخله لفترة مضت كالحلم والكابوس...

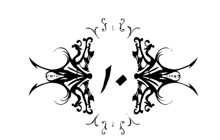
في الشارع لقيا من يذكّرهما بالماضي المرير، بحقيقتهما برغم التحولات الموقتة والأزلية، التشرد والبرد والجوع حتى الموت... على أحد الأرصفة المكسورة وقف صبي بعمر الجرو كي يستجدي العابرين في الشارع، لعلّهم يلقّمون يده المفتوحة أي شيء، متمازجاً صوته مع صوت بطنه الجائع...

هل حلم مرة بالوقوف على أفخم المسارح كي يشجي بصوته حشود رجال الأعمال ونجمات السينما؟ هل تخيل مروره بتلك اللحظات التي تسمّى نقطة التحول في الحياة من باب مداعبة الخيال؟ الوصول إلى لقمة العيش وبين أضواء الشهرة ونسيان الجوع والفقر وحياة التشرد برمّتها؟



عن طريق قصة قاسية تضرب على أوتار النفس البشرية بكل شجن، يكتمل هذا العرض السوداوي بداية مع «جفرا»، التي ما إن تراها وترى عينيها حتى تشعر بغضبها وأساها المتفجّرين بصمت، مع معرفة أنها صارت الآن بوجه وبدن ذكوريين، وانتهاءً بـ«جماح» الذي نجا من محاولة الانتحار بفضل «جفرا»، ومضى بحزنه وخوفه وآلامه بوجه وجسد أنثويين!





على طريقة مراكز الهويات، تم افتتاح عشرات المراكز المماثلة، لكنها خاصة بالأمنيات هذه المرة...

الفكرة أن المواطن البسيط لا يعي ما يتمناه، أي أنه يتمنى لكنه لا يخمّن ما ستجلبه أمنيته عليه من وبال مستقبلاً!

وقد أثبتت تلك المراكز فاعليتها بخصوص مشاكل العنوسة والعزوبية بالذات، إذ تردد ملايين من سكان الوطن العربي بتمنّي الزواج، لأنهم حسبوا تلك الأمنيات مرتبطة بالحب كما حذّرتهم «أمنية»، وبذلك تضيع عليهم أمنياتهم...

لكن تلك المراكز أثبتت بما لا يدع مجالاً للشك أن بإمكانهم التمني بأمان، بل بإمكان الراغب تمني الزواج بفتاة ثريَّة وجميلة، والعكس صحيح بالنسبة إلى العوانس، شريطة ألا يكون شخصاً معيناً



في أذهانهم يعيش على أرض الواقع، كممثل أو مطرب أو مليونيرٍ معروف...

وبذلك تم حل مشكلتَيْ العنوسة والعزوبية وبمنتهى البساطة!

حتى مشكلة العقم حُلّت، وبذلك نالت أمهات وآباء الذرية التي لطالما حلموا بها...

لذا تم افتتاح تلك المراكز لإرشاد أصحاب الأمنيات، وبلا رسوم تسجيل حتى! مع إعلانات تظهر كل دقيقة على التلفاز، كأنها إعلانات سلع ذات جودة عالية... على غرار:

عزيزي المتمني، عزيزتي المتمنية...

هل تحلم ـ أو تحلمين ـ بالثراء؟ بالزواج أو الإنجاب؟ باكتساب قدرة خارقة للطبيعة؟

لا تتعجل، اتصل بنا على الرقم الآتي «.........»، أو زر موقعنا:

www.wishescometrue.com

نحن بانتظارك... فلا تتردد!

* * *

على الهاتف العمومي ألصق «دكاك» السماعة السوداء بأذنه مرتكناً على الحامل منتظراً...



على الطرف الآخر ردّ عليه صوت متبلّد:

- نعم؟

- «إحسان»؟ كيف حالك؟

- من؟!

- «دكاك» يا أحمق!

- حسبتك مت!

- ليس بعد لسوء الحظ...

- إذاً أين اختفيت بحق الله؟

- ظروف خاصة بالعائلة... كيف الأحوال؟

- سيئة، أمي ستتمنى يوم ميلادها الطلاق!

- لربما كان ذلك أفضل لك ولأبيك! سأطلب منك خدمة يا «إحسان»... خدمة هامة بحق، وأرجو ألا تخذلني...

- اطلب رقبتي! فـ«جلاف» - رحمة الله عليه - أوصاني بك!

تنهّد «دكاك» وقد طافت في ذهنه ذكرى «جلاف» التي آلمته...

ثم لم يلبث أن نفضها قائلاً ببصر خاوٍ:

- هذا ما تعشّمته فيك...



- سمعت بالأخبار؟

- ماذا؟

- «منصور»! صديقك القديم الأبله، ذاك الذي هاجمته ثم...

- آه، ما به؟

- خرج البارحة من السجن!

- ؟؟؟

يبدو أنه تمنى الحرية في يوم ميلاده! يا لها من سخرية! ألا تظن؟

* * *

السجن وذكرياته المؤرقة...

لكن، ووسط نبع تلك الذكريات السوداء، تذكَّر وبشجن «جلاف» الضخم. عنوانه - قبل أن يُسجن - كان أحد البيوت المهجورة ذات الجدران المتصدّعة والأسقف المكشوفة، تلك التي تنتظر أوامر البلدية لمباشرة هدمها. كان يكسب من تنبيش القمامة باحثاً عن الزجاجات وعلب المشروبات الغازية القابلة لإعادة التصنيع، يبيعها بسعر زهيد كافٍ للسجائر وزجاجات العرق المغشوش...



كان «جلاف» زميلاً ممتعاً في الزنزانة التي آوتهما، أخبره أنه استيقظ أول ما استيقظ رامقاً الدنيا بِوَلَه، بحث بعينين ناعستين عن أبيه وأمه فلم يجدهما.... طبيعي، فالأطفال اللقطاء الذين تُركوا أمام أبواب الجوامع لا آباء لهم ولا أمهات، فقط تاريخ أسود بإمكانه تخيّله بسهولة...

هرب «جلاف» من الإصلاحية في سن العاشرة بعد أن ترعرع على يد عشرات المجرمين، كان يراهم مظلومين، أخبروه أنَّ كل من يدخل الإصلاحية مظلوم، لأن من يدينهم لهو أكبر الظالمين، المجتمع والحكومة والناس التي تحصّل قوت يومها بيسر يدينون الجائع والبردان ببساطة البصق أرضاً...

أحبُّ الذكريات إلى قلبه عندما كان «جلاف» يشرع بلفّ سيجارة لدى بدء الحديث عن الغد... عن رغبته في الزواج من أجمل الفتيات، وعن عدد الأولاد وأسمائهم، الذين يرغب في إنجابهم منها، عن الوظيفة التي ستكفل لهما معيشة رغدة، والمنزل الذي سيؤويهما بدل البيوت الآيلة للسقوط...

كانا يضحكان بتفاؤل للدنيا برغم عتمة السجن وأهواله، ينفثان دخان السجائر بحرارة لافحة، وبإدراك من سرعة تلاشيه في الهواء...

لقد قضى «جلاف» نحبه بطعنة في رقبته من سجين آخر، كان صراعاً على إحدى تلك السجائر التي أجاد لفّها!



تُرى ماذا كنت ستتمنى يا «جلاف» لو أنك لا تزال على قيد الحياة؟

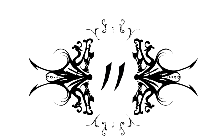
الحرية؟

الزوجة والأولاد؟

المسكن؟

إنها لمأساة أن «دكاك» لن يعرف يوماً...





في البداية أمره الحارس الأعور بالابتعاد مهدداً بإطلاق الكلاب عليه، لكن «دكاك» تجاهله مستخرجاً من بين طيات سترته كيساً بلاستيكياً صغيراً يحوي مادة داكنة اللون، وعرض بجرأة لا حدود لها تقاسمها مع الحارس لسبب بسيط، وهو أن مظهر الحشاش المحنّك ينكشف بسهولة، والاعور كذلك، فهو يتوق إلى التحشيش في هذه البقعة البعيدة عن أماكن البيع والشراء...

يقول الحارس المدعو «صنهاني» مواصلاً بصقه البلغمي المقيت:

ـ حتى النسوة اشتغلن في القرية، واستغرق العمل ساعات وساعات، أمضيناها نصلح ونرمم ما دمره المطر السنة الفائتة، والحكومة مولّية عنا! العمل كان شاقّاً، احتجنا فيه إلى كل دعم

ومساهمة، فظفرنا بدعم الزوجات والأطفال وحتى البهائم! وقد تعرضوا لمضايقات فتية القرية الكسالى... «كِبارية» القرية اعترضوا بادئ الأمر، الله يأخذهم إلى سعيره! لا يجيدون سوى الثرثرة! لذا تجاهلناهم وتحمّلنا العبء كله مع زوجاتنا وأطفالنا، وقد احتجنا إلى وقت طويل لإقناع البقية بجدوى ما نقوم به، «أي والله»! لكن بعد ذلك بدأ العقد ينفرط، وتوقفت الحماسة ومضى كلٌّ إلى حال سبيله... أَلاَ لعنة الله عليهم أجمعين؟! ليست لديهم الهمة والرغبة في العمل أساساً، مع أنهم كانوا يتفاءلون ويفخرون يومياً بما قمنا به... «أي والله»!

الحشيش أتى بمفعوله، فقد حرر عقدة لسان الحارس وجعله أكثر تبسطاً، كان يتظاهر بالتزمت فحسب!

سأله «دكاك» عن عينه اليسرى، كأن أحدهم دسَّ إبهامه فيها وعبث قليلاً!

كان سؤالاً فجاً، لكن الرجل بدا متبسط الأسارير وهو يردّ:

- لقد نشأتُ منذ ولادتي في قرية تخصص أهلها في طرد الجان من أجساد البشر. وحدث ذات مرة أن لبّيت نداء الطبيعة، فتبوّلت على رأس جني! غضب اللعين وتلبّسني، فأخذوني إلى أحد المشايخ كي يُخرجه، لكن الشيخ الأحمق وافق على خروج الجني من عيني اليسرى بدل إصبع قدمي الصغير كما يصنعون دائماً، فخرج ابن «الملعونة» بعدما فجّرها!



ويواصل «صنهاني» فلسفته وهو يهرش ما فوق عينه اليسرى المفقودة:

- القرية تغيرت. فبعد السيل المنهمر الذي هوى علينا قبل عشرين سنة اختفت مبانٍ كانت موجودة، لم يعد لها وجود الآن، فبدأنا من جديد، والشكر للحكومة الغافلة عنا، ألا لعنة الله؟! لا يتواثبون إلا للكبسات الفجائية، فقريتنا لم تكن مزدحمة هكذا من قبل برجالهم!

ثم بَرَقَ بصره بجشع قائلاً بشفتين متلمّظتين:

- لكن ليس بعد الآن! الله يخلي لنا الجنية الحلوة «أمنية» وأمنياتها الأحلى!

* * *

بدا «دكاك» بنصف ذهن...

أشياء دعته للدهشة والاستفزاز معاً.... رفاق المقهى الذين يسددون فواتير اشتراكات خدمات هواتفهم النقَّالة، حيث حمل كل واحد منهم على الأقل هاتفين، برغم أن طبيعة أعمالهم لا تستدعي هذا كلّه، ثم يذهبون لتحصيل قروض سيارات أخرى إلى جانب سياراتهم الحالية، مع أنهم لا يُصنّفون في خانة الأثرياء، ومع ذلك يسافرون كل سنة في الإجازة الصيفية إلى بلدان أجنبية، في حين يكتفي هو بإصلاح المكيف، وشرب كميات هائلة من المياه لأنها أنجع وسيلة للمحافظة على صحة البدن من وطء حر الصيف!



يسمعهم يرددون ببراءة أنَّ كل تلك الفواتير ليست لأهداف أو خدمات مبالغ بها، فكلها أشياء هم في حاجة إليها بالفعل، بحكم طبيعة العصر المنطلقة، فلا يمكن التنقل من دون سيارة، ولا السير من دون هاتف نقال، بل إن حمله صار واجباً على كل مواطن يحترم دستور بلده!

هو يملك هاتفاً نقالاً، لكن ليست هي الفكرة!

وبعدها يعاودون التحدث ببراءة مستفزة أكثر عن منظومة الحياة المقسّمة للمسؤوليات، وعن تكاليف الحياة الزوجية ما بين الزوجين بالتراضي، لتسير وتيرتها بسلام واستقرار...

كذا تفكر «دكاك» بهذا كله بذهن شارد، مراقباً من وراء ظهره الڤيلا الصامتة المنطوية على أسرارها الثمينة، ومن ثم يلقي بنظرة خاطفة على الحارس الأعور الذي لا يكفّ عن سرد حكاية قريته السخيفة مع الأمطار التي أخفت نصف مبانيها!

كان يرسم مخططه في رأسه، وهو يساير الأعور المدعو «صنهاني» بإيماءة رأس من آن إلى آخر...

* * *

فيما بعد:

بعد أن يفقد وظيفته كحارس يعود «صنهاني» إلى قريته...



بالطبع لا يكترث، لا هو ولا عائلته التي يعيلها وحده، لأن يوم ميلاد ابنه الأصغر يقترب، وقد منّت العائلة نفسها برغد العيش عن طريق أمنيته...

لكن قبل احتفالهم بميلاد الصبي بليلة، سينهمر المطر بجشع في ليلة شتاء آتية، وسيكتسح السيل المدمر منزله، ليهدمه ويغرقه و«صنهاني» وزوجه وعياله وهم نيام، فيهلكون لا محالة!



أمنية: مسافر عبر الزمن

كلما رآها خفق قلبه حتى ليكاد يتوقف، فتاة آسرة ببشرتها القمحية، بحجابها وخفرها وقوامها الرشيق الأخاذ...

فتاة عربية رقيقة ذات عيون سوداء، تدرس في كلية الطب بجامعة صنعاء، وتحب الجلوس أسفل شجرة وارفة الظل في حديقة الجامعة لمراجعة المحاضرات. أحياناً تنضم طالبة إليها، فتتحول المحاضرات الصعبة إلى آخر الأغاني التي غناها مطرب شاب جديد، لا يملك موهبة تُذكر سوى وسامة يتهافتن عليها...

وجد نفسه يعمل كحارس أمنٍ في الحرم الجامعي... تذكّر أيام الجامعة وجوّها، ومحاضرات الدكاترة المقيتة، ومقالب الرفاق المسلية... منظر الطالبات وهن يرحن ويجئن حاملات كرّاسات المحاضرات والمراجع، جعله يشعر بحنين جارف إلى تلك الأيام...



ثمة صداقة طريفة بعض الشيء بين طالبة بيضاء ترتدي نظارات طبية وأخرى داكنة اللون... جذب انتباهه ذلك الفرق الشاسع بين لون بشرتيهما والتناقض بين جسميهما، فالبيضاء ذات عود ناحل، والداكنة ذات قوام ممشوق قوي، كما لو كانت هي الحارس الخاص بالبيضاء الناحلة! لكنه فسّر تلك الصداقة على أن الداكنة تعتمد على ذكاء البيضاء للنجاح في الامتحانات!

كم يكره نظرات تلك الطالبة ذات الجمال القاسي، التي تضع الماكياج ولا تدع الحجاب يغطي شعرها قط. كانت نظراتها قاسية كنظرات لبؤة مفترسة، تحب زرع المشاكل كما هو ظاهر، وتُكثر من الهمز واللمز مع صديقاتها اللواتي يوافقنها الرأي في كل شيء على ما يبدو... على عكس فتاته التي بدت هادئة متزنة، لكن من دون أصدقاء كثر مع الأسف...

كرهها وكره محاولاتها الدائمة مضايقة فتاته، التي لا تريد سوى أن تتركها وشأنها أسفل الشجرة، لكن هيهات، فاللبؤة وجدت صيداً ثميناً تنفّس عبره عن مدى الإحباط الذي تشعر به نتيجة رسوبها المتكرر كما اكتشف!

لم يستطع السكوت أكثر في ذلك اليوم الذي تمادت به الفتاة المدلّلة وصديقاتها اللواتي على شاكلتها أكثر من اللازم.... لمح



الدموع تترقرق في مقلتي فتاته، فوجد نفسه يتدخل تلقائياً وهو يهمس لهن:

ـ هذا يكفي يا آنسات!

* * *

لم تكن خطوة سليمة مئة بالمئة، فقد اشتكين عليه لدى العميد الذي هدده بالطرد إن تدخّل ثانية، لكنه لم يأبه، وشعر بالراحة لتدخّله مع أن ذلك كان ليفسد - على الأرجح - مهمته التي أتى لأجلها!

من بعيد عاود اختلاس النظر إليها مجدداً... جمال يُنهك الناظر إليه، ويجعل المرء يخجل من مواجهته بسحنة غير خارقة الوسامة!

أمور الإناث تشغل بال الذكور حتى وإن ادّعوا جميعهم العكس.... محاولات البوح بالمشاعر والأحاسيس لفتاة، تلك هي اللحظات التي تشعر معها الأنثى بقوتها وسطوتها فتستغل ذلك وفقاً لشخصيتها...

كان يفكر... ما السر الإلهي الذي يشد الفتى إلى الفتاة بتلك الطريقة الجميلة؟ أهو سبب فيزيولوجي أم نفسي؟ إنه سر يجعل للحياة مذاقاً حلواً، وإن كان مريراً معظم الأحيان...

حين تبتسم تبدع! ابتسامة لا يمكن أن تصدر إلا عن فراشة هشة قد تقتلها نسمة هواء...

ولكن مهلاً... كانت ابتسامتها له! له هو هذه المرة!



شعر بوهج يشع بين ثنايا قلبه، فقد كانت تشكره بتلك البسمة العذبة على صنيعه معها. لم يدرِ ما يصنع، فابتسم بارتباك شديد وهو يُخفض بصره، في حين تلاعبت أظافره بمؤخر عنقه، فهرشته حتى تركت عليه آثاراً مؤلمة بعض الشيء...

* * *

- ««حسناء»، هل فهمتِ شيئاً من محاضرة اليوم المنحوسة؟

عدّلت «حسناء» من جلستها أسفل الشجرة العملاقة، قبل أن ترفع بصرها كي ترى تلك التي تخاطبها، فوجدتها زميلة لها تدعى «رحاب»، فتاة نضرة البشرة دقيقة المعالم، فردّت عليها باسمة:

ـ تقريباً...

ـ تقريباً؟ هذا يعني أنك فهمت كل الترهات التي تفوّه بها الدكتور!

وجلست بجوارها على ركبتيها قائلة بابتسامة نضيدة الأسنان:

- غداً سيُدخلوننا المشرحة، جاهزة للرعب؟

كانت تلك هي المشكلة الحقيقية في الطب، المشرحة! وقد أيقنت «حسناء» أنها ستتقيأ ما إن تشم رائحة ميت...

في حين بدت «رحاب» متحمّسة وهي تهمس بجذل:



- سنرى زومبي يا فتاة! سمعتُ أن بعض الجثث لقتلة حُكم عليهم بالإعدام!

تبدّت الرهبة واضحة صريحة على وجه «حسناء» هذه المرة، وبخوف همست:

ـ أرجوك قولي إن ذلك غير صحيح!

ـ بالطبع لا، إنها مجرد مزحة! أصدّقت حقاً أنّهم سيجلبون لنا جثث قتلة لتشريحها؟!

ومن ثم ردّت بنفسها على تساؤلها وهي تهرش ذقنها مفكرة:

- ولكن... لِمَ لا؟

تبادلتا نظرات واجمة من دون تجرّؤ إحداهما على النطق هذه المرة!

* * *

في مشرحة كلية الطب تقف الطالبات مرتديات المعاطف البيضاء بتبختر، والمراجع الضامَّة لمئات صور تشريح البدن الملونة تحت إبط كل واحدة منهن، ولقب «دكتورة» يتردد في ما بينهن بزهو وخيلاء...

كان فني التشريح سودانياً في الخمسين من عمره، تم انتدابه



من جامعة الخرطوم بطلب من كلية الطب في جامعة صنعاء، وقد بدا ودوداً في تعامله، وإن تبدت نظرة غير مريحة في عينيه...

كان يشرح للطالبات بالمبضع الذي أشار بطرفه على خطوط شرايين الذراع المفتوحة لإحدى الجثث، ولم تتقيأ إحداهن لحسن الحظ طيلة الشرح... وعند انتهاء المحاضرة العملية، بادرته «حسناء» بأسئلة إجاباتها مستعصية، فبقي قليل من الطالبات لسماع الإجابات، في حين تدافعت الباقيات للخروج وهن يتحادثن بتلهّف عن جو الإثارة التي عايشنها داخل المشرحة، ورؤيتهن لذلك الكم من الجثث التي كف أصحابها عن الحياة منذ مدة طويلة...

قال فني التشريح مخاطباً اللواتي بقين وإن خص «حسناء» بجلّ اهتمامه:

ـ على العموم لديّ من المراجع والوسائط السمعية والبصرية ما يساعدكن في دروسكن، لا أستطيع أن أضمن لكنَّ أنها ستكون زهيدة الثمن، لكنني أؤكد لكنّ النجاح بأبسط سبل الشرح السهل، والذي لن يستعصي على طبيبات المستقبل!

ابتسمن لتلك المجاملة الأخيرة، في حين همست «رحاب» لزميلتها «حسناء» بمكر:

ـ لا بد من أنه نصاب!



ـ لا أظن، شرحه يدل على أنه خبير، فهو يملك ما يمكّننا من التفوق في مادة علم التشريح وبسهولة كما ذكر...

ـ على العموم سنساير الكذَّاب حتى يتبين لنا كذبه، هل ستبتاعين منه شيئاً؟

ـ ليس حالياً فالظروف المادية صعبة...

ـ إذاً سأبتاع لكِ وادفعي لي لاحقاً...

تبسمت وهي تقول بامتنان:

ـ شكراً، لكنني أفضّل ابتياعها بنفسي...

ـ كفي عن السخف وسايريني كي ننجح بتفوق!

وهنا ظهر الحارس الجديد الشاب في تلك اللحظة حاملاً صندوقاً كبيراً ومغلّفاً... فتبادل مع «حسناء» نظرة سريعة جعلتها تُخفض نظرها على استحياء، ولاحظت «رحاب» ذلك، فتبسمت بمكر وهي تهمس لها جذلة:

ـ ما الذي يحدث يا فتاة؟ لستِ هينة كما تبدين للجميع!

ـ أرجوكِ كفى!

ـ إنه إعجاب حقيقي! إعجاب صادق يدفئ القلب!

تصاعد الاحمرار إلى وجنتي «حسناء»، وهي تدفع كتف زميلتها برفق مكررةً بهمس:



- أرجوكِ كفى!

في تلك اللحظة كان هو يدفع بكتفه باب المشرحة وقد تصاعدت حرارة مشاعره من قلبه إلى وجهه، فاصطدم بأحدهم ليسقط الصندوق أرضاً، ولحسن الحظ لم يسمع صوت أي تكسّر...

ـ أنا آسف!

ـ لا عليك...

رفع وجهه باسماً بإحراج، فوقع بصره على وجه فني التشريح الذي كان يبتسم ابتسامة هادئة في تلك اللحظة...

أما عنه هو، ففقد ابتسامته ليحل محلها هلع لا حدود له...

* * * * *

- أرجو أن تعيد على مسامعي ما قلته تواً يا سيد...؟

ـ ««ثابت»، «ثابت غسان»، أعمل كحارس أمن لديكم يا سيادة العميد...

ـ أعلم أنك حارس أمن لدينا، وناديني بدكتور لو سمحت...

ـ حاضر يا دكتور...

نهض عميد كلية الطب حاملاً فنجان قهوته الصباحية قائلاً:

ـ والآن أعد على مسامعي ما قلته مرة أخرى...



ـ لديكم فني تشريح سوداني يدعى «محمد آدم عمر»، أليس كذلك؟

ـ هو كذلك...

ـ هذا الرجل ليس مجرد فني تشريح، إنه...

ـ قاتل ومغتصب يهوى تقطيع الطالبات واغتصابهن، أليس كذلك؟

ـ ليس هذا فحسب! إنه يتاجر بأعضائهن التي يقتطعها من أجسادهن المغتصبة! ويتخلص من بقايا الجثث في المشرحة! كما أن له سوابق في تشاد ولبنان و...

ـ كفى لو سمحت!

وجلس على طرف مكتبه متأملاً معالم وجه «ثابت»، ثم سأله بحذر:

ـ سيد «ثابت»، ما الذي ترمي إليه بالضبط؟

ـ أريد إنقاذ طالباتك من قبضة وحش، وحش حقيقي!

ـ هل جننت أيها الفتى؟!

قالها العميد بعصبية، إلى درجة أن بعضاً من قهوته انسكب أرضاً ليلوّث البلاط الناصع، لكنه تجاهل ذلك مردفاً بنبرة قاسية:

ـ أنصت لما تقوله، إنك تتهم رجلاً منتدباً من جامعة محترمة بجرائم لا تملك دليلاً واحداً على أنه ارتكبها...



ـ «زينب سعود عزيز»، هل يقرع هذا الاسم جرس الذاكرة لديك؟

رمقه العميد بنظرة طويلة وجامدة، ثم تمتم:

- أجل، إنها تلك الطالبة العراقية التي لم تحضر منذ فترة للمحاضرات، وجاءت أمها لسؤال رفيقاتها عنها...

ـ «زينب» لم ولن تحضر لأنها...

ـ لأنها ماذا؟ لا تقل لي إن سفاحك المزعوم ذبحها!

ـ بالضبط!

ـ أخرج من هنا لو سمحت!!

كاد «ثابت» أن يجادل، لكنه خشي أن يُطرد، فكظم غيظه وخرج تاركاً العميد يمسح البلاط الملوث بالقهوة ببعض المحارم الورقية.

* * *

«زينب سعود عزيز»، طالبة عراقية مجتهدة، لم تفوّت محاضرة واحدة مذ ولجت كلية الطب...

رفيقاتها يتساءلن عن سبب عدم حضورها، أهي مريضة أم ماذا؟

يُفاجأن أكثر بظهور سيدة مذعورة ذات عيون محمرّة من فرط



البكاء الشديد، قدمت نفسها على أنها والدة «زينب»... شعرنَ بالدهشة والخوف والمرأة تكرر كالمصدومة:

- «زينب» لم تعد منذ محاضرات البارحة، ليست تلك من عاداتها، أين «زينب» يا بنات؟ بحق الله أين ابنتي؟!

يشتد خوفهن وهنّ يتبادلن نظرات تحمل ما هو أكثر من الاستفهام والحيرة مما يحدث...

* * *

بتصرف عن مقالة في إحدى الجرائد:

عندما تم القبض على «وحش صنعاء» أخيراً، سُئل عن سبب ارتكابه تلك الجرائم الحيوانية الفظيعة، فردّ قائلاً باستهجان:

- «الدنيا سايبة!»

وقصد أنّه لم يكن لوحده في تلك الجرائم، والدليل على ذلك هو اتصالات التهديد بالقتل التي تلقتها عوائل الضحايا. وأكدت التحقيقات فيما بعد أن السفاح كان يدير إلى جانب عصابة المتاجرة بالأعضاء البشرية، شبكة دعارة في صنعاء، بعض أعضائها كانوا من أبناء شخصيات مرموقة!



وقد استعانت محكمة «بني الحارث» بخبراء من ألمانيا، أكدوا بعد فحص مسرح الجرائم في المشرحة، أنه ارتُكبت داخلها جريمتا قتل فقط، أما عن بقية العظام البشرية الموجودة فقد جُلبت للدروس، لكن بطرق غير مشروعة...

أكدت التحقيقات كذلك أن عدداً من رجال الشرطة والأطباء كانوا يُحضرون للسفاح الجثث كي يتخلص منها بعد الاستفادة من أعضائها... وقد قُدّر عدد الفتيات اللواتي اغتصبهن وقطع أعضاءهن داخل المشرحة وخارجها بحوالى ١٦ ضحية!

* * *

لن يكتفي أبداً بالمراقبة، فهذه المرة سيكون الحل سهلاً وسريعاً...

في ذلك اليوم قرر «ثابت» ألا يتلكأ في تخليص الناس من الوحش الشره للدم، فابتاع مسدساً، إذ من السهل شراء أي سلاح داخل اليمن، فذات مرى رأى رجلاً يعرض دبابة للبيع في السوق!

لكن ما زاد من حسرته قدومه بعد مقتل الفتاة العراقية المسكينة، لكنه يدرك أن طالبة تدعى «حسناء» ستكون التالية...



كان الوقت ظهراً، وأثناء سيره المتعجل تلاقت نظراته مع نظرات فتاته الجالسة أسفل الشجرة... نظرة واحدة أنبأتها بأن ثمة خطباً مقلقاً بشأنه...

لم يُطل النظر، بل ثبّت بصره بعزم في سبيله حتى بلغ المشرحة...

بعنف دفع الباب ودخل... كان الوحش جالساً خلف مكتبه يراجع بعض الأوراق، وقد تفاجأ بتلك المباغتة، فقال بحدة وهو لا يزال جالساً بمكانه:

- ما الذي يجري؟ كيف تدخل هكذا من دون استئذان؟

وهنا شهر «ثابت» سلاحه في وجه السفاح، وبسخرية أجابه:

- الدنيا سايبة!

وبلغ صوت الطلقات المروع الكلية بأسرها...

* * *

جلس المحامي المتأنق على الكرسي المواجه للمتهم المكبّل بالأغلال، واضعاً حقيبته السوداء على الطاولة المعدنية الصدئة، وقال بروتينية وهو يهمّ بفتحها:

- «سيد «ثابت»، أنا المحامي «محمد الخطيب»...»

بقي «ثابت» صامتاً وإن تبدّت بسمة تهكّم على شفتيه، فهذا



المحامي بالذات هو نفسه الذي تولى مهمة الدفاع عن «محمد آدم عمر»!

وببرودة قال «ثابت» متأملاً زوج الأغلال في رسغيه:

ـ لا أريد محامياً...

ـ لكن...

ـ أرجو أن تغرب عن وجهي!

* * *

- حكمت المحكمة على المتهم «ثابت عبد الفتاح غسان» بالإعدام شنقاً، صدر هذا الحكم بتاريخ...

ومن وراء القضبان رآها «ثابت» جالسةً بين الحضور، «حسناء» بشحمها ولحمها، كانت تتأمله بزمرّدتين امتلأتا دمعاً!

رمقها بنظرة طويلة وممتنة، جميل منها أن تأتي، ثم أومأ لها برأسه قبل أن يقتاده العسكري للحجز، فخفضت بصرها كي لا يتنبّه أحد لدموعها التي تجهل هي نفسها لِمَ ولمن ذرفتها!

* * *

في تلك الليلة صلّى «ثابت» حتى مطلع الفجر...



لم يكفّ عن الدعاء والصلاة حتى أتوا لأخذه، فكبّلوه بالأصفاد واقتادوه عبر ممرات طويلة - أو أنها تبدّت له كذلك -، وقد ظهرت برودة ذات رهبة على وجوههم، في حين بدا «ثابت» هادئاً قادراً على السير بدون أن يختل توازنه ولو لمرة...

في مستودع - أو أنه بدا كذلك - كانت منصة المشنقة الرهيبة بانتظاره، كذلك رجل وقور يرتدي ثياباً أزهرية قال له بتؤدة:

ـ قل: أشهد أن لا إله إلا الله...

ـ أشهد أن لا إله إلا الله...

ـ وأشهد أن محمداً رسول الله...

ـ وأشهد أن محمداً رسول الله...

ترددت أدعية ملء الفم، واكتظ العقل بغشاوة ضبابية سرعان ما انقشعت - ويا له من توقيت! - عندما غطوا وجهه بكيس قماشي أسود حجب رؤيته تماماً... ثم أحاطوا عنقه بحبل الموت الغليظ كثعبان «الأناكوندا»...

- أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً...

ثم لم يشعر بالأرض أسفل قدميه...

* * *

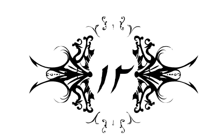


على مسرح الواقع:

٥ طلقات من بندقية آلية نثرت رأس «وحش صنعاء» من الخلف إلى أشلاء، في صباح يوم الأربعاء، الموافق ٢١ حزيران/ يونيو من عام ٢٠٠١م... وقد وقف ٢٠ ألف مشاهد أمام ساحة كلية الطب في الجامعة، لمشاهدة الفصول الأخيرة من حكاية السفاح الذي روّع بلداً بأسره...

كانت حكاية رعب معاصر يصعب تصديق حدوثها...





العالم قلق بحق... بل على حافة الانهيار!

القلق الأعظم كان بالأحرى من نصيب الحكومات، والسبب الاقتصاد المتدهور، والذي تحوّل فعلياً إلى كارثة لا مناص منها...

الديون باتت أضحوكة، والبورصة خاوية على عروشها من المضاربين...

الوظائف باتت للكل وبمتناول الجميع، لكن التعداد الأكبر لم يعد راغباً في العمل، الكل بانتظار أمنيته كي تتحقق، فإن حدث وتحققت...

أما سيئ الحظ الذي لم تتحقق أمنيته فإما يسلك سبل الانتحار، وإما يمضي حياته كمعتوه فاقد لعقله، ولربما انقلب مجرماً يسطو أو يقتل وبمنتهى العنف والضراوة!

في أميركا وروسيا واليابان، وبلدان اتحاد «الكومنولث» الأوروبية، وحتى بعض دول الوطن العربي، تم سن القوانين الآتية:

١- كل من يتمنى أموالاً سيتم احتجازها وإلقاء القبض عليه بتهمة عرقلة النمو الاقتصادي!

٢- كل من يتمنى مقدرة خارقة معرّض لأحكام قد تصل إلى المؤبد أو الإعدام!

٣- يُمنع منعاً باتاً تمنيّ امتلاك النصب التذكارية والرموز الخاصة بأي بلد، كتمثال الحرية، وبرج إيڤل أو بيزا المائل، أو الكريملين أو أهرامات الجيزة وخلاف ذلك...

٤- يُمنع كذلك تمنيّ الأعمال الفنية الخالدة من تماثيل ولوحات ...الخ، كلوحتي الجيوكندة والعشاء الأخير وخلافهما!

٥- يُمنع منعاً باتاً تمنيّ دمار مقر أو أي بناء مهما كان، حتى وإن كان مرفقاً عاماً، وعقوبة ذلك ستكون السجن أو الغرامة، والإعدام في حال سقوط ضحايا.

بالنسبة إلى البند الثاني فالله وحده يعلم كيف سيتمكّنون من حبس أو إعدام شخص بمقدرة خارقة كسوبرمان على سبيل المثال!

وقد تباين تنفيذ تلك القرارات من بلد إلى آخر، والمشكلة



الأعسر هي إيجاد الشخص الذي تمنى اختفاء تمثال الحرية مثلاً، ما لم يجازف أحدهم بأمنيته الخاصة لكشف الفاعل!

أجل، لم يتم المساس ببرج بيزا أو حتى الأهرامات وتمثال أبي الهول! يبدو أن العالم كان ناقماً بالفعل على أميركا، وينتظر اللحظة المناسبة فحسب للتحرش بها!

تلك القوانين الجديدة لم تنجح في كبح جماح الأمنيات، وخصوصاً تلك المتعلقة بتمني الثروة، وثار العالم ثورة هوجاء متّهماً الحكومات بالأنانية والانحيازية...

كما أن الشعب الأميركي اتهم حكومته بالانحياز إلى الشيوعية!

ثم بدأت معركة التمرد الجنوني...

* * *

قبل أن يقابله في السجن... عاش «الضنكي» طوال حياته في عزلة شديدة، في الوقت الذي يبدو أنه يمتلك كل شيء، المكانة الاجتماعية الرفيعة، الإسهامات الشخصية الكبيرة، المستوى العلمي والعقلي، المال الوفير، الكاريزما الاجتماعية بين كبار الشخصيات.... لكن برغم ذلك كله فهو يبدو وحيداً، منغلقاً، منعزلاً عزلة مزدوجة من الظاهر، حيث لا يرتبط خارجياً بمن حوله ارتباطاً وثيقاً، وعزلة من



الداخل حيث لا يتجاوب عاطفياً ولا يشارك الحياة بكل صورها مع غيره، ما جعله عرضةً لكثير من التساؤلات والمخاوف والأفكار التي كان يخفيها في أعماقه...

لو كانت تلك أسباب سجنه فلسوف تكون أكبر حماقة، فالسبب الحقيقي كان متعلقاً بالأطفال! وللأسف مكّنته سلطته من الخروج باكراً من سجنه، الذي كان من المفترض أن يكون مقطنه المؤبد عقاباً على جرائمه النكراء تجاه الأطفال المشردين أو أولئك الذين تم اختطافهم من ذويهم... شيء مروّع يتعلق بالمتاجرة بأعضائهم!

هكذا عاد إلى وحدته المخيفة في العالم الخارجي... المتماشية مع وحدته الحقيقية التي يعاني منها، «الضنكي» يخشى كثيراً الوحدة، يخافها بشكل كبير، حاول باستمرار أن يحافظ على زواجه المتهاوي، ليس إلاَّ هرباً من براثنها، وما إن يواجه تلك الاتهامات الذاتية حتى يكتشف أنه كان وحيداً طوال حياته، وأن وحدته الذاتية تلك عَزَلَته عن التجاوب مع غيره، ونفَّرت الجميع منه، حتى إنه لبرودته لم يعد يهتم لخيانات زوجته له، خصوصاً بعد معرفتها بحقيقته الشيطانية!

* * *

وجد «دكاك» نفسه في عالم لم يعرفه من قبل، عالم الذعر



والغموض، عالم مليء بالألغاز الغامضة، التي تحتاج إلى من يقوم بحلّها وفك أسرارها واكتشاف ما تخفيه من مفاجآت لا تطرأ على بال بشر...

فاللعبة العابثة تعتمد على الذعر، وبشكل أساس لجعله يصاب بالذهول والخوف.... ليس بيده حيلة ولا يعرف أين المخرج من هذا المأزق الكبير، لذا سيكون الحل بالنسبة إليه - على الأغلب - الهرب من المخاطر التي تواجهه في ڤيلا الغموض، ومن قبو صغير موصد بإحكام!

عندما سمح له حارس الڤيلا «صنهاني» بالمرور لاجماً كلابه الشرسة، وجد الحدائق مصمّمة بشكل رائع وخالٍ من الأخطاء، فهي تعرض العديد من التفاصيل الهامة بهندسة رسومية تفوق الخيال...

حديقة ضخمة امتلأت نخيلاً وأشجار لوز ووروداً جهنمية، تمنح الزائر العديد من الطرق والممرات الفرعية. وبالرغم من أن البيئة تمتاز بالجمال والسكينة، إلا أنه لم ينسَ أنها تعج بالأعداء، ما جعله يأخذ حذره بشكل أكبر... وعندما يدخل سيحتار لكثرة الممرات والطرق الفرعية والأساسية إضافة إلى الأبواب المغلقة، بحيث يجب أن يفكر مطولاً لمعرفة الاتجاه الصحيح!

أضاع مدة زمنية ثمينة في دهليز الأعشاب الخضراء، ولما ظن أنه ضاع إلى الأبد، فوجئ بهم يظهرون كالعفاريت...



كانوا يرتدون ثياباً جلدية سوداء، قاماتهم طويلة جداً أو قصيرة جداًا! يتمددون وينكمشون في حركات مخيفة وكأنه كابوس! أجفانهم مستطيلة وليست مستديرة، حمراء أو يشع منها الاحمرار.... وبرعب لاحظ أن تلك الأعين الشنيعة ترمقه بغيظ وحب للانتقام منه! وقد انقضّوا عليه غير مبالين بصراخه، فكمموا فمه وعصبوا عينيه...

وفي أذنه همس أحدهم بنبرة كالحشرجة الجشعة:

ـ لا تقلق، سنأخذك لرؤية سيدك!

فأدرك أنه على الدرب الصحيح تماماً!

أراد أن يزيح يده كي يبصق على وجهه صارخاً: «*لا سيد لي! إنه سيدكم أنتم وأنتم كلابه! وأنا هنا كي أضع النقاط على الحروف وأظلل الجمل المبهمة!*

في القبو ألقوه، ولبث سويعات حسبها كأعوام أهل الكهف. كان يدق الجدران بقبضتيه، يركل الباب، يصرخ... ثم لا يلبث أن يهدأ، وينتظر متوقعاً الأسوأ... لربما سيظل هنا إلى الأبد!

لم يدرِ كم مرّ عليه من الوقت، لكنها بالتأكيد مدة طويلة للغاية. أنين معدته الجائع لا يكذب، فهي تتقلص وتئِنُّ بقساوة مفرطة، أراد أن يكف هذا الوهن البشري عن إزعاجه لأنه ليس وقته، فالشبع ترف لا يرغب فيه حالياً!

أخذ يزدرد لعابه على مهل...



ثم بحث مطولاً في زوايا القبو عن حجر ضئيل يضعه تحت لسانه كي يُخرس جوعه قليلاً فلم يجد! كان القبو نظيفاً وكأن الشياطين توقعوا تلك الخطة!

وأخيراً فُتح الباب... لن يستغرب لو اكتشف أنه هنا منذ أكثر من يوم! أطلّت منه امرأة ارتدت ثياباً زاهية، وقد عقصت شعرها الحنَّائي... تميل إلى الضخامة في تكوين الجسد، كالصدر والوركين، فإذا أضيف إليهما طول الجذع فتكون قد اكتسبت مواصفات «حارس شخصي» مثالي!

فكّر «دكاك» بمهاجمتها، لكن نظرة التحذير التي أطلت من عيني المرأة القوية صدّته...

قالت مدبّرة الڤيلا الغامضة ذات الشعر المصبوغ بالحنَّاء:

ـ إن سيدي بانتظارك، لكن سيكون عليك إيجاد غرفته بنفسك!

* * *

يقول «الضنكي» ويده الممتلئة بخواتم ثمينة تداعب فروة كلبه الأسود الهجين:

- «شايلوك» يمتلك بنية جسدية قوية وأنياباً حادة قادرة على تقطيع الأعداء بكل يسر! لن يحبك الكلب ما لم تعامله بشكل حسن،



يجب أن تثني عليه وتطري على ردود أفعاله، مثل ذيله المتأرجح ولسانه الذي يلعق أناملك، تستطيع مدحه كقول: Good Dog وما شابهها... فبالرغم من قوَّته، هو بحاجة إلى عبارات الثناء، لأنها تجلب له السعادة وتحببه أكثر فيك! أيضاً عندما يمل ستجده جالساً يحكّ جسمه للتخلص من البراغيث، أو لأخذ قيلولة لبعض الوقت!

كانت لديه نبرة صوت قادرة على زرع الخوف والقلق في القلب، حيث يقرض على أضراسه أثناء الحديث...

ثم الموسيقى المتصاعدة من زاوية ما... موسيقى مثيرة تبعث على الخوف والرعب، وستجعله مضطرباً لا يعلم ما هو مقبل عليه، إذ ستعمل على جعله مذعوراً وهذا أمر متعمّد، وسيجد كل هذه الأمور تعمل بشكل ممتاز بمزيج رائع من الأنين والصراخ والألم النفسي!

لم يكن إيجاد «الضنكي» صعباً في الواقع، فقد تتبع صوت الموسيقى المخيفة التي انبعثت من إحدى الغرف، ولما بلغ الغرفة المنشودة ولج...

فوجئ بالرجل المخيف الضخم والأقرع بلا رموش ولا حواجب جالساً على أريكة ملكية، وقد وقفت على يمينه ويساره سيدتان جميلتان اتصل عناقهما بطوقين خرجت من كليهما سلسلتان فولاذيتان رُبطتا بمقبضي أريكته، فوقفت واحدة على يمينه، في حين قُيّدت الأخرى إلى يساره... تماماً كجاريتين!



ثم لم يلبث أن تراجع عندما نهض الكلب الشرس الضخم كي يزمجر متوعداً، في حين قال «الضنكي» مهموماً:

- أحياناً تصادف أطفالاً صغاراً ذوي عقول شريرة.... الطفل يخبر أمه أو أباه أنه سوف يقتلهما ما لم ينصتا إليه... فاضطُر كثر من الآباء والأمهات لسماع مثل هذا التهديد المخيف والسخيف من أطفالهم، فقد أضروا بهم لدرجة جعلتهم ينفّذون وعيدهم العابث في النهاية.... وضعوهم داخل أكياس مع بعض الحشرات المؤذية أو الفئران الجائعة وربطوها بغية تأديبهم! فتصرفات الأطفال تكون مزعجة أحياناً!

هنا قال «دكاك» الذي لم يحتمل سماع المزيد:

- لا بد من أنك تتحدث عن نفسك، فأنت مجرد طفل كريه آخر!





في عقل «دكاك» اضطرابات دموية متفجرة، فكان يرى كل ما حوله عبارة عن دماء تدفعه إلى الغضب الذي يريحه...

ـ الاختلافات في التفكير والنمط الذي يعيشه الإنسان يصل بنا إلى اضطرابات نفسية لحالات معينة، ربما تؤدي إلى مرض نفسي يجعلنا نخرج عن طورنا إلى حد الدماء!

حدَّق «دكاك» في سحنته المكتنزة مذهولاً، كأن الوغد يجيد قراءة الأفكار! فاسترسل «الضنكي» غير آبه:

- اختياري لخط سير حياتي لم يكن نابعاً من خيالي، فالهدف من توصيل فكرتي هو إن امتلكت قدرات واقعية! فلو نظرت إلى الشخصية التي أود السيطرة عليها في نطاق هادئ وواقعي، لتبين لي بأن هذا الهدوء - أو هذا الواقع - قد مر بحياتنا! ليس شرطاً أن



يحوي رعباً، لكن قد يصحب معه القلق لدرجة الخوف أو الرهبة في حالات معينة!

- ترى ماذا كانت أمنيتك بالضبط يا «ضنكي»؟

أشار إلى المائدة الممتدة أمامه، حيث وُضعت صينية مذهّبة جُهّز عليها طبق لحم مشوي بأعشاب إكليل الجبل المهروسة!

نظر إلى «دكاك» قائلاً بابتسامة عريضة:

- مع تحيات الشيف «طاووس»!

- ومن يكون؟

- طباخ بارع ظهر من العدم ليحصد الإعجاب كما لو كان نجماً سينمائياً... لا بد من أن الأمر متعلق بالأمنيات! فما رأيك؟

- اذهب إلى الجحيم!

- الآن لا! إذ لا فائدة من الحديث بمعدة خاوية، لقد أمرت بتجهيز هذا الطبق خصيصاً لأجلك!

بدت الرائحة أسطورية لا تقاوم، ووجد نفسه ينقضّ على اللحم فيلتهمه التهاماً، وطلب الرجل اللعين منه بلباقة أن يرمي بقطعة إلى كلبه، ففعل «دكاك» ذلك بكراهية عظمى وجوع أعظم!

كان يأكل بنهم إنسان الكهف الأولي، في حين استرسل «الضنكي»:



- إن وجودك لهو عبارة عن رسم جذور وهمية من واقع الخيال! أحلام قد نحلم بها... ولكي نشعر بواقعها، فالإنسان بطبيعته مكيف بحياته، إذ ثمة من يعيش لحظات السعادة، وآخر لحظات البكاء، فكيف بشخص لم يعش لحظة سعادة واحدة وقد تكيفت حياته بأنماط العذاب وأشكالها؟ من الطبيعي أن يكون حلمه أثناء نومه عبارة عن وجوه متوحشة ومخيفة يحاول قتلها! وهذا الأمر يعكس واقعه في الحياة، لأنه لو شاهد حقيقة الإنسان الذي قام بتعذيبه فلن يراه بصورته الطبيعية، وإنما سيراه بصورة مخلوق بشع حمل في وجهه كل أنواع الظلم والعدوان...

- كفى ترهات! لا أريد سوى الطفلة! أين هي يا «ضنكي»؟!

ـ بل إنك لأبعد ما يمكن من أن تريدها! ألا ترى أيها الساذج؟! ألا ترى؟! ما الذي دفعك دفعاً للحضور إلى هنا بقدميك؟ كأنما نبتت في عقلك خارطة لدربي!

ـ ماذا تعني؟!

أجاب «الضنكي» بنبرة فاترة:

- إن أسوأ الأشياء أجملها! ربما تستغرب قولي، لكنني أقصد بذلك أنه علينا تجميل الشيء قبل تعييره، وهنا أقصد بالتعيير الإساءة إلى الشيء وتحديد نقاط الضعف فيه من دون أن نجمّل نقاطه الإيجابية!



الكلب الأسود يكشّر مزمجراً وكأنّه رأى أو سمع ما أثار اعتراضه، أو شعر بضيق سيده الذي هدّأ من روعه كثيراً لما، فارتاح على قوائمه مسدّداً نظراته النارية كيفما اتُّفق، لكنه خص «دكاك» بأغلبها!

وأردف «الضنكي» ببسمة شديدة البهتان:

- «كنت كثير الحنكة من خلال الغوص بأمنيتي والتعمق بها، برغم أن المسار الذي اتخذته لنفسي حمل الكثير من البرودة والذعر في بعض المواقف، إلا أنه رسم واقعاً حقيقياً ملموساً ربما يجهله البعض وربما البعض الآخر قد عاشه!»

وتمعّن في بقايا الشراب في كأسه مسترسلاً قبيل همهمته الباردة:

- ربما كثر ممن أعرفهم قاموا بتجربة عوالم الأمنيات ولم تعجبهم النتائج، وأخصّ بالذكر الأغنياء! ربما لسطحيتهم وتفاهة أفكارهم، لكن لا بأس من التحلي بالصبر وخوض المغامرة مهما حملت من صعوبات، فهذا الشيء ليس نهاية الأمر!

- بحق جهنم... بم تهذي؟!

ابتسم بمكر، وأشار إلى إحدى الجاريتين بالكأس الفارغة، فسارعت المرأة بعينين مغناطيسيتين إلى صب مزيدٍ من الشراب في كأسه من قارورة كريستالية على شكل بوق جاز!



تساءل «دكاك» وقد فقد أكثر الكثير من سخطه:

- عن أي مغامرة تتحدث؟!

ضحك بصفاء عجيب مجيباً:

ـ كل من يتمنى في بداية الأمر أمنية خارقة للطبيعة سوف يحبط، كيف لا وقد نال شيئاً أزلياً مهيباً لا رجعة فيه؟ لكن هذا ليس حقيقياً، فماذا بعد الإحباط غير الدنو من مرتبة الآلهة؟! طبعاً كانت هذه حالي لحسن الحظ، إذ وجد بعض رفاقي الحمقى من كبار الشخصيات سعادتهم في لعب دور العبد المذل المهان، وهم يتقبّلون ذلك بسعادة لا توصف!»

كان لديه أسلوبٌ عبقري في التحكم بملامح وجهه ونبرة صوته وحركات أنامله وجسده لتلائم شخصيته الكاسحة.... يتقمص الشخصية بخشوع مفرط نافياً معه شخصيته الحقيقية، موهبة لا توجد سوى لدى المخابيل أمثال كاليجولا وتشاوشيسكو!

لربما فاقهما «الضنكي» نظراً إلى أمنيته المخيفة! و«دكاك» سيرتجف خوفاً لدى تخيله تلك الأمنية السوداء! فقال وفرائصه ترتعد غضباً واستنكاراً وهو ينهض مرتجفاً:

- ماذا تمنيت يا «ضنكي» بحق الله؟!



أفلت «الضنكي» كأسه، فهوى أرضاً ليتفتت إلى عشرات القطع الحادة، وبإنهاك دمدم متأملاً كلبه الذي أخذ يلعق بقايا الشراب:

كنتُ متأكّداً من رد الفعل هذا، فالإله عليم بنوايا عبيده! حتى ولو كان تعريفه شيطانياً لدى البعض!

طوّح «دكاك» بحذائه الأيمن، فارتمت مدية صدئة بعض الشيء كان يخفيها أسفل قدمه، مال والتقطها ببطء وهو يدمدم مراقباً ردّ فعل «الضنكي»:

- كلماتك الأخيرة أيها التعس!!

تنهّد «الضنكي» معاوداً فرك عنق كلبه... وخُيّل إلى «دكّاك» أنه نطق كلماته بأشد الطرق أسفاً:

- أواثق أنت؟

نظرة الخواء صارت أقوى في عينيه، وبصعوبة - وبغير تصديق - سمعه «دكاك» ينطق همساً أكثر كلماته كدراً ولؤماً:

- أتحسبني بشرياً الآن أيتها الحشرة التافهة؟!

ماذا صرتَ الآن يا «ضنكي» بعدما كنت لعيناً في الأساس؟!

أتراك تمنيت اللعنة الأزلية؟ أن تكون ملعوناً أبد الدهر؟!

كم أوقعتَ في شباكك الحالية؟ وكم تغذيت عليهم حتى تحولوا إلى دماء حمراء تتساقط من جثث بعد صراع مميت؟ ذباب يحلّق



فوق طعام فاسد، رمش سقط من عين أغرقها الدمع، وأناس لم يموتوا ميتة طبيعية لكنك قتلتهم غدراً وبطمأنينة شرير ثَمل!

هل كنت على ثقة بأن ضحيتك ستكون خاضعة لك مثل كلبك الأسود؟ هل توقعت استسلاماً فورياً؟ حيث يستمع المقتول إلى قاتله، ويستسلم له قبل أن ينهش في قلبه ليُسعد ذاته؟

هلمّ انتزع كل ما يميزك كإنسان لتصبح كائناً جهنميّاً يبحث عن ضحايا! أصبح الذين يعتبرون أنفسهم أنصاف آلهة يتفشّون كالمرض في قلوب الناس أينما كانوا! ما الحسد والحقد والضغينة والسيطرة وحب الاستحواذ والتملك إلا أنواع لذلك الذي لا يرضى به غير قلب أسود، يحمل في طياته الغدر المنتشي بعذابات الأبرياء، سمّ يفتك بقلوب الآخرين!

* * *

بعد أن خرج من سجنه، وجد «دكاك» نفسه في سجن من نوع آخر حاول التعايش داخله قدر الإمكان. سار في خطىً مظلمة، الأمر الذي جعله يدرك كم أصبحت الحياة بهذه الحقارة، وكيف أنه لم يعِ من قبل أنه ما كان عليه الخضوع لها منذ البداية!

لحظات الانفجار الصاخب، التي يسرع بعدها البطل الأحمق بالنزول إلى أسفل وكله ترقّب لرؤية ما يدور خلف العتمة من هول.



وبينما يهبط السلالم الخشبية تفرط إحداها من أسفل قدمه لتهوي بـه إلى القعر، فيصرخ وحيداً في قاع الأرض من شدّة الألم. يحاول بيأسٍ أن يتحرك ليخرج من المكان الموحش والمعتم فلا يقدر!

شعر «دكاك» بكيانه يتحطم ببطء...

كان ينظر حوله فلا يجد سوى الدماء السوداء المبعثرة بعبث وعشوائية. وعندما تحدث «الضنكي» أحسَّ أنه لن يصغي إلى شيء بعد الآن، وبدا الرجل المكتنز الذي أسكرته أفكاره الخاصة سخيفاً ثقيل الظل إلى حدّ لا يوصف!

* * *

عندما حدّق «دكاك» ببصر خاوٍ إلى حيث يجلس «الضنكي» على عرشه المظلم وهو ينطق بالسخافات العقيمة، أبصر ظلاً ضخماً يتشكل ببطء أمامه...

كان الظل مبهماً، بسريالية أخذ يتشكل على صورة متشحة بسواد كالكفن...

همس ذلك الظل بنبرة كالنذير المشؤوم:

«أعلم ما يجول بخاطرك...»

ورفع يداً مرحّبة!



«جلاف»! السجين الضخم اللطيف برغم ملامحه الغليظة، كان يغزل بين أصابعه المتشققة مطواته الثمينة، فلطالما أراد لزميل زنزانته «دكاك» أن يتقن فن رشق المطواة كي يتعلم كيفية الذود عن نفسه...

ـ عليك يا «دكاك» ألا تصير لقمة سائغة، الكل يحسبوننا عبيداً لنزواتهم ومصالحهم المادية، لكننا لسنا كذلك، لحمنا مرّ، وأنيابنا أقسى من أنياب الضباع...

هكذا... رفع مطواة «جلاف» الصدئة بقبضة ثابتة لا تتزعزع، فتوقف «الضنكي» أخيراً عن الثرثرة...



أمنية: العائلة السعيدة

في منزلهما العتيق في الضواحي الفقيرة عاشا كزوجين...

وهما الآن يستعدان للذهاب إلى حفل عشاء يقيمه أحد أصدقائهما الجدد.... طبيب كهل يجيد الغناء، وزوجته التي تجيد طهو اللحم بأوراق إكليل الجبل المهروسة الذي يمنح الوجبة عطراً منعشاً ونكهة سارّة. وقد حاولت «جنان» الحصول على تلك الوصفة العجيبة، فكان جواب المرأة الضاحك الذي أبرز أسنانها الأمامية الشبيهة بقواطع الأرانب:

- كتاب الشيف «طاووس» يا عزيزتي! ابتاعيه حالاً وبدون إبطاء، فهو رجل عبقري!

وثرثرت كثيراً عن برنامج ذلك الشيف الأشهر «الطبق الذهبي»، أنجح برنامج طهو على الإطلاق. صار الرجل علَماً من أعلام الشهرة،



أسطورةً في عوالم الطبخ، وصفاته سحر لربات البيوت واستجابة لصلواتهن....

لا بد من أنَّ الأمر متعلق بالأمنيات... كذا تفكرت «جنان»!

ثم استأذنت ضيفتها للذهاب إلى دورة المياه، مع وعد بالنمائم الشيّقة عن زوجات بعض المعارف لدى عودتها. عندئذ تجد «جنان» الفرصة للتنفس بأريحية، كانت تتظاهر بحسن الإنصات إلى كل تلك الترهات بتعسر...

هكذا، جددا صداقتهما مع الطبيب وزوجته.... «جبران» يجالس الطبيب الكهل، الذي يخبره بأهمية وجود «جنان» في عيادته لمعاينتها عقب الولادة...

لقد رزقا بطفلة، و«جنان» تنزف طوال الوقت، حتى كادت روحها تزهق. لم تصدق وجود آلام بتلك الصورة الجهنمية، كأن «إبليس» يجاهد للخروج بمذراته ثلاثية الأشواك، في حين كان «جبران» ينتظرها خارجاً كأي أب محترم، داعياً الله أن يكون...

وأتى المولود بنتاً جميلة، لها أنف والدتها وعينا والدها...

عاشا مع الطفلة الجميلة كعائلة، وجيش من القطط المشردة التي آوياها في منزلهما... عائلة متماسكة لربما تتظاهر بالسعادة!

كان «جبران» ينام على الأريكة بين القطط المتراصة في حجره وعلى ساقيه، و«جنان» على سرير تدثره دزينة من القطط، لكنهما



لم يسمحا لتلك الكائنات بدخول حجرة الطفلة. الواقع أن حجرتها لا تمتّ بصلة إلى جدران المنزل القديمة، كانت جديدة الطلاء الوردي، ومجهزة بأثاث أغلبه يدوي الصنع.... حجرة معطرة وجيدة التهوئة، كما وفرا لها بعض الدمى كي تلهو بها عندما تكبر قليلاً، أما المهد فقد حصلا عليه كهدية من الزوجين السعيدين - الطبيب المغني وزوجته النمامة - اللذين لم يحدث أن زارا المنزل، وإن فعلا لأصابتهما رؤية جيش القطط الراتع داخله بالخرس...

* * *

عند البار، يحاول الطبيب الكهل التودد إلى «جنان» مطالباً إياها برقصة ستُسعد رجلاً يحتضر، ينظر ببرودة إلى زوجته الساذجة، فتهز رأسها متحمسة ألا مانع، وخلال الرقص تشاهد زوجها يحادث زوجة الطبيب، فتستشعر غيرة بين ثنايا صدرها...

لم يتزوجا لرغبة كلّ منهما بالآخر، أقصد الطبيب وزوجته الباسمة والمحبة للنميمة طوال الوقت... الطبيب قال لـ«جنان» ضاحكاً إنه تزوج للاستمتاع بجمال زوجته الذي ذوى الآن، أما عنها هي فقد أطلعت «جبران» على سر زواجها بالطبيب، وهو للاستمتاع بثروته طبعاً! أي أنهما - بمعنى صريح - لم يتزوجا عن حب...



اعترفت الزوجة لـ«جنان» أنها خانت زوجها مرات عديدة مع رجال آخرين! وقد اكتشفت فيما بعد مدى حقارة صنيعها، ما نتج عنه لاحقاً استيقاظ ضميرها الذي كان في سبات عميق، وإصابتها بعقدة ذنب مؤرقة، فباتت تتفانى في خدمته محاولة ألا تُتعبه زيادة على تعبه!

في محنة المرض التي تعرّض لها زوجها حاولت أن تصلح الأخطاء التي بدرت منها قبل فوات الأوان، إلا أن الوقت بات متأخّراً كون الرجل يطرق أبواب الموت بالفعل... ليس لدرجة استخدام أمنيتها في طلب الشفاء له! إذ إنها تمنت سلفاً ما يكفيها من الثروة خوفاً من المستقبل وطمعاً بالمزيد، ولربما كي تتزوج عقب وفاته بسلاسة! في حين أنَّ الزوج لا يعلم ما إذا كان سيصمد لعشرة أشهر، وهي المدة التي يحتاجها للانتظار حتى يبلغ اليوم الذي يتيح له الاحتفال الأهم بيوم ميلاده!

عندئذ اختارا مزيداً من الاحتفال بدل الحزن والترقب الخائف. وتعرّف الطبيب إلى «جنان» عن طريق المصادفة، عندما زارته في عيادته ليكتشف بعدها أنهما جيران. وفي ظروف أخرى ـ لو كان الطبيب صحيح البدن ـ ما كان ليجرؤ على عقد صداقة مع أشخاص أقل منه مقاماً ومالاً، لكن التغييرات التي طرأت عليه وعلى زوجته جعلتهما يستقبلان الزوجين «جنان» و«جبران» كأعز الأصدقاء،



هرباً من النفاق والرياء والنميمة التي اعتاداها في السابق من معارفهما القدامى!

اقتصر الحفل على الأربعة فحسب. وبعد اللقاء في البار سيتوجه الجميع إلى منزل الطبيب، كي يتناولوا وجبة عشاء شهية أعدّتها الزوجة الصالحة من كتاب الشيف «طاووس»...

* * *

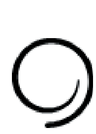
ماذا عن الانتقام الرهيب؟

كذا تساءل عقل «جبران»... والإجابة أن الانتقام يبدو بالبساطة ذاتها كما في الأفلام، لكنه معقد كلعبة شطرنج ما بين كاسباروف والحاسوب على أرض الواقع...

ما حصل عليه «جبران» من إجابات كان كالآتي: إنه الآن زوج وأب، يعاني من ماضٍ أليم لا سبيل لفك طلاسمه... عانى الأمرَّين قبل تتويجه تلك المعاناة بالزواج بـ«جنان» هرباً من متغيرات القدر العجيبة، والآن هو يعمل كنادل في مطعم، أما هي فبائعة «فشار» ومشروبات غازية في سينما من سينمات الدرجة الثالثة...

لم تكن الحياة المثالية، لكنها كافية للاستمرار...

* * *



الساعة تقارب الثامنة مساءً.... بعد أن تمكن «جبران» من الولوج صعوداً إلى الساحات الرئيسة التي تزدحم بمحلات «الكوفي شوب»، تلقفه شارع شبه معتم للمشاة، لكنه صاخب ومريب فيه مجموعات من الفتيات المشبوهات من مختلف الأعمار...

- «مرحباً جار!»

قالتها إحداهن، ربما بسخرية... فتجاهلها «جبران»، لكنها تقدمت نحوه بوقاحة مهنّئة:

- مبروك المولودة الجديدة، ماذا أسميتماها؟

تساءل «جبران» عن ردّ فعل الذكر في مواقف كهذه، ربما صرخة زجر مع بعض الصفعات والركلات العنيفة إذا ما استوجب الأمر...

ثم قرر الاستجابة لردّ فعله الطبيعي والتلقائي حين يتخاطب مع أناس عاديين:

- شكراً، أسميناها «ولاء»...

دنت غانية أخرى مدمدمة برعونة مستنكرة:

- «ولاء»؟! هذا اسم ولد!

ردَّت عليها الأولى بنفاد صبر:

- ويصلح للبنت أيضاً!



- لا يصلح...

- وما أدراك يا بنت ال...؟!

ضحك «جبران» بشدَّة، فتضاحكت كل الفتيات في الشارع لضحكه، ما زاد من جرأة الغانية الأولى، فهمست محاولةً إبداء رباطة الجأش:

- «سلّم لنا على المدام...»

- «يوصل»!

ودخل المنزل وسط النظرات المتربّصة والفضولية التي كادت تسبب الحساسية لظهره!

بالنسبة إليهن، لم يتوقعن كل هذا اللطف على ما يبدو... لو أنَّ هذا الجار الوسيم صفع واحدة وشجّ رأس أخرى لأبدين تفهماً... لكن ما حدث للتو كان أكبر من احتمالهن!

في الداخل أحاطت القطط بقدميه كما الحرس حول موكب الملك، فداعب بعض الرؤوس الضئيلة، وصال ببصره وجال أرجاء المسكن لتفقّد الأحوال...

- أنا في المطبخ...

نزع البدلة صائحاً:

- ماذا تطبخين؟



- شيء يدعى... لا يهم!

توجّه إلى المطبخ بخطى متثاقلة، فوجد «جنان» في أسوأ حال ممكنة، وسط أكبر فوضى رآها في حياته من بقايا الخضروات وبعض قطع اللحم...

وعلى المفرمة الخشبية كتاب أنيق سميك الجلدة، جعله يتساءل بحذر:

- ما هذا؟

- أكلة جديدة...

- عنيت هذا...

وأشار إلى الكتاب، كانت ذاكرته ممتازة، فإذا أبصر مسماراً جديداً ولامعاً فسيسأل عنه، وهذا الكتاب الجديد والأنيق لا يمتّ إلى المنزل كله بصلة...

قالت «جنان» مجففة راحتيها في المريولة:

- «استعرته من «دوللي»...»

زوجة الطبيب المحتضر. أخيراً نفّذت «جنان» الموال الذي برأسها، لكنها على الأقل لم تبتع الكتاب باهظ الثمن لحسن الحظ...

نقر «جبران» على الغلاف مدة قبيل توقفه:

- كيف الطفلة؟



- نائمة...

لكنه لم يكن آبهاً حقيقة، كان يحاول تذكّر صاحب الصورة على الغلاف، الرجل الباسم الممتلئ ناعم الشعر والشاربين، كان يرتدي هندام الحفلات الراقية بدلاً من ثياب «الشيف»، فبدا كمبصر أجرام سماوية نصاب!

أخذ «جبران» يقلب صفحات الكتاب السميك مهموماً... لا بد من أنه قد رأى «خِلقة» الرجل من قبل... هل في التلفاز؟ «جنان» تقول إن برنامجه يعدّ الأشهر من بين كل برامج الطبخ، لكن لا...

ثمة هاجس خفي أخبره بأنهما قد تقابلا وجهاً لوجه!

* * *

إن معرفة «طاووس» الحقيقي لأشد إثارةً من متابعة برنامجه الذي سلب عقول الزوجات ومَعدات الأزواج...

رجل فريد من نوعه كما يشاع، لا يمكن الجزم بمعطيات تصرفاته، يجعل المرء سجين تفكيره، ويأخذه في جولة ميدانية بحدائق ذهنه وتفكيره الغامض الذي يتعدى حدود عالم الطبخ!

غير قابل للتقليد، يمارس برامج يومية دقيقة منتظمة لتطوير مؤهلاته العقلية والجسمانية، حيث يمارس رياضات ذهنية للحفاظ



على صفاء تفكيره، ويستخدم شتى أنواع محسنات البشرة والجسم من «جيلات» وزيوت ليبقي على رونقه أطول مدة ممكنة...

ينفق «طاووس» أمواله على البِدل، الأحذية، المطاعم، مجلات الأزياء، واستخدام الغواني القاصرات!

* * *

قالت جارته «نانسي» وأناملها الناحلة تعتصر سيجارتها التي أشعلها لها «جبران»:

- لم يعودوا يميزون ويفرّقون بين أنفسهم المنحرفة، كل واحد يشابه الآخر بتفكيره ومظهره... زبائن آخر زمن!

سألها «جبران» باهتمام واراه بعناية:

- حتى «طاووس»؟

- دعني أخبرك بشيء، إنه الوحيد الذي أخافني!

أحياناً من المفيد أن يعيش المرء في شارع أعمال الغواني، كما لو كانت أخبار المدينة بأسرها في متناولهن!

«نانسي» تعرف الكثير، تعرف مثلاً أن سائق «طاووس»



الخاص يظهر كل خميس ليقلّ منهن واحدة قاصرة بعينها إلى الڤيلا النائية، وقد أقلّ «نانسي» مرات عدة لأنها راقت لسيده بشدة...

طبعاً لكل معلومة ثمنها، ولحسن حظ «جبران» كان ثمن جمع معلومات عن «طاووس» بَخِساً، فكل ما طلبته «نانسي» هو رؤية الطفلة...

- ولكن بعد خروج زوجتي...

- وهو كذلك، المهم أن أراها!

ثم وبابتسامة مداهنة:

- هل أستطيع جلب صديقاتي؟

ولشدة دهشتها أجابها «جبران» بشرود ذهن:

- بإمكان الجميع القدوم لرؤية «ولاء»!

- أنت إنسان مختلف يا سيد «جبران»!

- دعكِ مني وأطلعيني على المزيد...

* * *

قال السائق ذو النظارات السوداء بوجوم:



- سيدي رجل لطيف مع معجبيه، يردّ على استفسارات الزوجات بشأن وصفات الطهو... ولكن ما إن يفرغ من التصوير حتى ينقلب إلى أخطر رجل يمشي على هذه الأرض! سيدي من النوع الذي لا يحبّذ التفاخر أمام الناس، ذكي ويعرف ما سينفّذه في خطوته المقبلة، عقله لا يهدأ وإصراره لا يزول...

ثم أمر «جبران» بالترجل من سيارته «اللامبورغيني» الفضية، فترجّل...

وقبل أن يرحل ذو النظارات السوداء قال لـ«جبران» بنعومة ثعبانية:

- «أنت تسأل أسئلة كثيرة - أيَّها الفتى الجميل- عن سيدي، تحسبه لا يعلم!

وسيدي يراقبك أنت وزوجتك، يعلم ما تخطط له وحدك... نصيحتي لك ألا تفعل! لا تفكر ولا تخطط، عش حياتك الجديدة بصمت من أجل زوجتك الجميلة والطفلة، وإلا...

وانطلق بسيارته الرائعة تاركاً «جبران» يقلب فحوى التهديد بروية في عقله...

* * *



توقفه الفجائي عن ممارسة حياته لا يظهر صريحاً، ربما لأنَّه وجد أن حياته ليست سوى كذبة كبيرة. التزامات يعايشها لكنه في الحقيقة لا يعيشها، ولا يحس بها ولا بتكوينها، كيف يعيش المرء حياة لا يعلم من وماذا يكون فيها؟

يسترجع حياته بكل ما فيها من شطحات: شخصيته القديمة التي لا يفهم سبب عدم تمكّنه من تذكّرها، عائلته الهزلية المكونة من زوجته والطفلة والقطط. الغريب حقّاً أنَّه يألف تلك القطط أكثر من زوجته وطفلته، كما لو كانا دخيلين عليه وعلى قططه! محيطه من الغانيات يألفه كذلك، ركائز حياتية يعيش بمقتضاها، لكنه يفتقد ميزة الإحساس بها وفهمها، لذا فالصمت والانعزال والانسلاخ من حياته هي وسيلة لإعادة الأمور إلى نصابها، إلى محاولة إعادة غربلة حياته من جديد...

يلوذ بالصمت والعزلة مفكراً في تلك الصورة السريالية، التي تجمع نصف وجه «جنان» بالنصف الآخر من وجهه في سحنة واحدة... تلك الشاعرية الداكنة صاحبتها صورة متقلّبة بشكل كبير، مرئية في حال «جبران» المصطبغ بالقلق، عندما يذهب إلى النظر في مهد الطفلة، وعندما يراقب توأم روحه التي تجاهد لتصير ربة بيت أفضل!

أتت الغواني ـ أثناء دوام زوجته ـ لتهنئته بطريقتهن الخالية من

الذوق ذات الفجاجة الشوارعية بلغتها وتصرفاتها، وهو قابع يحاول تصنّع البسمة التي تتسلل من بين كل تلك الأفكار والهواجس، كتعبير عن عزلته الذاتية التي تمنعه من التجاوب على ملامح وجهه الموغلة في العناء...

لشدّة ما آذته كلماتهن عن فتنة الطفلة، وتفوّقها الأكيد في امتحانات الثانوية مستقبلاً، كان ذلك الأب الفخور سائحاً في دنيا أخرى، لكنه، وأثناء السياحة، لم ينسَ أن يطالع الساعة المعلّقة على الحائط كي يستوثق من ميعاد انتهاء دوام زوجته، فآخر ما يتمناه هو مفاجأتها له مع ثلة من الغواني أحببن نيل شرف رؤية الملاك الصغير النائم، كي يظفرن الليلة بأحلام الأمومة السارة التي لن تكون لهن يوماً...

وعندما عادت «جنان» بادرها «جبران» بالسؤال مغتصباً ابتسامة:

- كيف كان العمل؟

لكنها بدت كجثة خاوية، ترتدي زي عمال السينما الذي يصلح للذكور والإناث على حدّ سواء، ولم تكن تحمل الأغراض التي اعتادت ابتياعها للمنزل أو حاجيات الطفلة، فأدرك أن ثمة خطباً ما...



- ما بالك؟

ركّزت «جنان» عليه بعينين حادتين، متسائلة بنبرة صوت جافة:

- هل تحدثت إلى أحدهم مؤخراً؟

قرر أن يكذب، لكن «جنان» واصلت حديثها من دون انتظار جواب:

ـ حسنٌ... لقد تحدثت مع الشخص ذاته، وهو ينصحك بالكف عن مزيد من البحث وإلا دفعنا كلنا الثمن!

ـ أنتِ لا تعلمين حتى ما الحكاية...

- ولا أريد أن أعلم! لدينا حياة الآن...

- بل بقايا حياة، والشخص المسؤول عن تحطيمها يعلم هذا جيداً، يريدنا أن ننسى بكل بساطة! ونواصل تجميع الحطام محاولين إلصاقه، يريدنا أن نتظاهر بأن الحطام المتلاصق أجمل من الأصل!

صرخت عيناها قبل فمها المفغور:

- ماذا تعني؟!

تناول كتاب الطهو، وبسبابة متصلّبة أشار إلى صورة «طاووس» في الغلاف الأخير صارخاً:

- هذا الكائن! هذا ال... إنه المسؤول عن كل شيء!

أطلقت «جنان» ضحكة عصبية قائلة كذلك بعصبية:

- مسؤول عن ماذا بحق الله؟!



قال وسبابته تنقر وجه «طاووس» كمنقار نقار الخشب:

- سبق أن قابلت هذا المأفون في حفلة سابقة، كان الطاهي المسؤول عن «بوفيه» حفل نجاح عرض للأزياء الهندية!

- هل جننت؟!

- هذا ما حسبته قبلاً، لكن بعد لقائي بتابعه بتُّ متيقناً من أنني على الطريق الصحيح! ألم يهددك؟ لِمَ يفعل وجلّ ما فعلته السؤال عن سيده؟ ألا تفهمين يا جنان؟ هذا الرجل لا يزال يراقبنا! وهو عليم بكل خطوة نخطوها، إنه يعلم كل شيء عنا!

- هذا محال!!

- «بل هو حقيقي كحالنا المزرية! إنه يريدنا أن نكف عن بحثنا حتى لا نصل إليه، هو مرتاع من فكرة الانتقام التي لم ولن تمحى من أذهاننا!

هذا الرجل هو سبب تعاستنا يا «جنان»، والويل كل الويل إذا أرهبتنا تهديداته!

- كفى!!!

كذا صرخت «جنان» مختطفة الكتاب، ثم رمت به عرض الحائط مطلقةً صيحة أشدّ غضباً، قبل أن تسقط على ركبتيها منتحبة...

كانت ضوضاء كافية لإيقاظ الطفلة من سباتها العميق...

* * *



«جنان» تلهث بلا انقطاع كأنَّما فرغت لتوّها من سباق للركض، و«جبران» يقف موثقاً بساعديه أمام صدره، ومطالعاً إياها بنظرات غائبة واجمة...

قال لها بهدوء برغم صراخ الطفلة الذي تصاعد بعنف من غرفتها:

- أنا لست مجنوناً!

تنفست بانتظام، ثم اندفعت تقول بحرارة:

لا، لستَ كذلك يا عزيزي!

تصاعد انفعاله رويداً وهي تتحدث ببطء كي يستوعب ما تقوله من عجب عجاب:

- هذا المحيط القصصي الذي نعتاش وسطه سببه أنا! وأنا فقط!

فقد كنتُ كاتبة روايات بوليسية متوسطة الشهرة، وسبب شهرتي هي قصصي المتعلقة برجل تحريات وسيم له أسلوب عيش فريد من نوعه، حيث يقطن شارعاً تتسكع فيه الغواني القاصرات، ومنزلاً يكاد يكون مأوًى لعشرات القطط الضالة!

كما أنه يملك ماضياً أليماً. فتاة قاصر عشقها وكاد أن يتزوجها



لولا قيام أحدهم باغتصابها وقتلها! فصار هدفه الأوحد إيجاد قاتلها بأي ثمن كي يظفر بانتقامه منه!

كانت تلك القصص مفتاح نجاحي، وجدت نفسي أسحب ببطءٍ إلى عوالم ذاك التحري، أفكر كما يفكر، أتخيل كما يتخيل، حتى إنني صرت أتخذ قراراتي من خلال طرائقه وأساليبه في التفكير، حتى اعتبر معارفي ما أقوم به هوساً!

ثم ظهرت «أمنية»! ووجدت نفسي أفكر كثيراً في ما تقدمه إلى العالم، ووسط ذلك كلّه أغرقتُ نفسي بالتفكير أكثر لما دنا يوم مولدي...

تمنيت! تمنيت أن يصير التحري الذي اخترعه خيالي زوجاً لي! كنت خائفة من فقدان أمنيتي كونها متعلقة بالحب، لكنني جازفت كون الشخص الذي تمنيته عبارة عن وهم صنعته مخيلتي!

كان رهاناً وكسبته! وبالفعل، لما التقيتك لم أتمكن من التقاط أنفاسي... تماماً كما تخيلتك! والأروع أنك ظهرت في عالمي بالطريقة نفسها التي تخيلتها! في شارع مظلم للغواني، حيث تقطن مع القطط في منزل واحد!

قدمتَ إليّ نفسك بالاسم الذي لم أتردد في اختياره لك، أسميتك على اسم كاتبي المفضل، والذي لا علاقة له بالقصص البوليسية، وهو جبران خليل جبران!



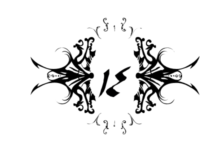
لكنك احتفظت داخلك بحياة التحري التي تخيلتها أنا لك: شكوكه بمن حوله، ارتيابه الوسواسي الدائم، رغبته الملحّة في الانتقام، ذلك ما جعل حياتنا جحيماً!

أحس «جبران» بأنه كفّ عن التنفس...

شحب وجهه حتى حاكى وجوه الجثث، وبتخاذل تراجع مغمغماً بريق جاف:

- إذاً... هل أنا حقيقي؟ أم أنني من نسج الخيال؟!





تسلل إلى حيث فرجة الباب الشبيهة بحفرة لرؤية الكوابيس...

أبصر - في رعب - غريمه «الضنكي»... كان يسير مترنّحاً، في حين تلطّخ صدره بالدم القاني!

ابتلع «دكاك» ريقه معاوداً المراقبة المتحفزة، فوجد الرجل منبطحاً وقد ألصق وجهه بالجدار، فدنا منه بخطى حثيثة، وبأمل غامض متواثب بين أضلعه وضع راحة يده على كتف الرجل للتأكد من مدى قوة رشقه للمطواة على...

استدار «الضنكي» بغتة، مراقباً بمقلتيه الدمويتين تقاسيم «دكاك» باسماً بامتنان، أو أن هذا ما ظنه الأخير قبل أن يُفاجأ به يقبض على يده بقوة...



وفي الثانية التالية كان يطوّق عنقه بكلتا قبضتيه، ثم ابتدأ يصدم له رأسه بالجدار بوحشية!

شعر «دكاك» بالبلل يُغرق صدغه وعنقه وحتى ذراعيه، لكنه واصل المراقبة دونما اكتراث وقد اختل بصره تماماً، صارت الصور مُقوّضة ومصبوغة بالدم... لكن، وبرغم ذلك تمكّن من رؤية مطواته القديمة، التي التصق نصلها بمنتصف موضع القلب للضنكي... تماماً!!

والوحش البشري يواصل صدم رأسه بالجدار بقوة لا تصدق...

وبينما الغمامة الداكنة المسماة بالموت تطوف ببصره كالضباب... خُيّل إليه أنه يستيقظ بغتة من كابوس مرعب...

رأسه سليم! وعنقه كذلك، أما «الضنكي» فقد تلاشى كأن شيئاً لم يكن!

كان عبثاً شيطانياً لا يمكن تصديقه!

* * *

إن ما يحدث داخل هذه الڤيلا ما هو إلا العبث اللعين...

مجرد عبث لعين!

حين مرَّ «دكاك» بمرحلة انهيار نفسية أثناء التحقيق معه، والذي



استمر لأيام بخصوص طعنه صديقه السابق «منصور»، لم يعرف ما يخبئ له المستقبل من كوارث وفواجع تفوق تلك التي حسبها ستكون الأسوأ في منعطفات حياته المتعددة والمعوجة...

خرج من السجن مبتدئاً رحلة لتغيير المفاهيم وتجديد الإيمان للبحث عن أجوبة للأسئلة التي انتابته في مجتمع زائف مليء بالأكاذيب... ما تحوّل إليه لم يكن من منطلق إرادته، بل إرغام المجتمع له ومبادئ ساعدت على ذلك...

يداه ترتجفان، قلبه يخفق برعدة شديدة، ومعدته تستصرخ مستنجدة...

شعور من رأى الرعب كما لم يصوّره أي فيلم من قبل، حتى إن تسميته بفيلم أمر غير منصف... فهو حقيقي جدّاً، واقعي ومؤلم للغاية... هنيئاً له بتجربة فظيعة كالتي قرأ عنها في الصحف أو شاهدها في قاذورات الفيديو مثل «الجيالو» الإيطالي! ذكر أنها من المستحيل أن تحصل معه، مأساة من مآسي العالم السفلي!

خرج من الغرفة من دون أن يحرك رأسه أو أي جزء من جسمه، لدرجة أنه عجز عن التفكير بالمستقبل المرعب المبني على الواقع الظالم، فالمغامرة الآن مختلفة تمام الاختلاف!

* * *



بعض الناس يسألون ببراءة: لماذا الممنوع ممنوع؟

البعض الآخر يتساءل: لماذا الممنوع مرغوب؟

أما «دكاك» فقد كان سؤاله الوحيد هو: لماذا الممنوع في دنيانا أصلاً؟

أصابه الدوار القاتل، فلم يكذّب خبراً... تقيّأ بأعنف ما يملك. ما الفارق والقيء والدم يملآن الغرفة؟ لن يميز أصحاب المكان الفرق!

دخل وخرج، دخل وخرج... لم يترك غرفة من دون أن يتأكد مما يقع، ودونما اكتراث لاستيقاظ أحد. حتى الغرفة الوحيدة التي تبدت طبيعية أرعبته، برغم أنها غرفة مكتب تحوي ببغاء «كاسكو» أبيض اللون داخل قفص بيضاوي، ولا يكفّ عن الثرثرة!

ـ *«حرامي!! حرامي!! حرامي!!»*

خرج... بالأحرى لاذ بالفرار من الغرفة، معاوداً اقتحام بقية الغرف...

خُيّل إليه أنه يفتح أبواب الجحيم الباب تلو الآخر، فيرى أولئك الذين يتعذبون.... صحيح أنها مجرد جثث الآن، لكن عذابها كان جلياً... أولئك الأطفال تمنوا الموت لدرجة لا يمكن تخيلها، لقد قضوا نحبهم بكثير من الصراخ، ولربما هلكوا من فرط الرعب...

* * *



جلس «دكاك» على أريكة وثيرة في الدور الأرضي...

تذكّر ذلك الطفل الذي افتقد حنان والديه في صغره لانشغالهما بمساوئ بعضهما البعض، ولم يجد أحداً ليحتضنه سوى شيطان الغضب الذي سلب منه طفولته، جاعلاً منه كاسراً صغيراً مليئاً بالحقد وإرادة المغامرة المتهورة. وبالرغم من كل ما يُظهره من ضغينة ورجولة وصلابة، إلا أنه ظلَّ طفلاً يتمنى الطفولة الحقيقية...

تذكّر ذلك الطفل وهو يبحث في جيوبه عن السجائر التي جلبها معه...

ثم وجد نفسه يحاول تذكّر ما قام به في هذه الليلة تكفيراً عن الذنب الأعظم الذي ارتكبه!

البراءة تحولت إلى ذكريات يحيط بها شلال من الدماء... المستقبل الذي كان ينتظر هذا الطفل يوماً - وغيره من الأطفال - تسرّب إلى الأبد كالسائل الزئبقي من بين الأصابع الملوثة، الوحشية التي دخلت حياتهم وقلبتها رأساً على عقب، إلى الأبد!

ولكن... لا بأس...

سهر الليل بطوله وهو يجهّز الڤيلا لتصير طوع أمره، حيث دخل وخرج مرات عدة حاملاً «الجراكن»، وأغلق بإحكام كل المداخل والمخارج كضمانة... ثم أخذ يرمي الوقود في كل ركن وزاوية... لم



يكترث للحارس الأعور وكلابه خارجاً، ولا للرجال الملثّمين بالسواد، والغريب أنَّه لم يرَ أحداً خلال النشاطات التي قام بها لسويعات!

بالنسبة إلى الرجال لربما كانت ثقة «الضنكي» العمياء بنفسه وبأمنيته ما دفعه إلى صرفهم...

أما بالنسبة إلى الحارس، فلربما المادة التي أعطاها كهدية له قوية بحق! من يدري؟ لربما أعطى منها كلابه التي تشبهه لأنه يكره التحشيش وحده!

شعر بغصّة دفعته إلى انتشال هاتفه النقال من جيبه، كان قد بعث إليها مسبقاً بعض الرسائل النصية قبل أن يبدأ رحلته إلى هنا، ولم تردّ عليه، فخمن أنها غائبة عن الوعي...

ولحسن الحظ وجد عدداً من رسائل «أماني» النصية أخيراً...

ورويداً رويداً تبسّم بحزن مطالعاً:

صديقي العزيز...

دائماً تبادر بالسؤال عني، لا تعلم كم يفرحني ذلك!

أماني القديمة ليس لها وجود... ماتت.... أنا فقدت نفسي وفقدت روحي...

أتجنب النظر في المرآة، مع أن الجميع يمدح شكلي.... عندما تقع عيناي على انعكاس وجهي في المرآة، أشعر بالكراهية!



شعور غريب، كأنني شخص بغيض كريه!

أسأل عمر وأسماء: أتحبان ماما؟ ماما لم تعد حلوة... يأتي ردّهما عليّ: لا، ماما حلوة، نحن نحبك!

عزائي الوحيد هو إيماني بأني من عباد الله، وبأن وجودي له هدف وهو عبادة الله!

كذلك وجودي مهم لولديّ...

آسفة لاسترسالي في الكلام...

ما هو المرح؟ لماذا يفرح الناس؟ إننا نسير في طريق الموت!

في النهاية جميعنا سنموت!

أفكر في أجسام البشر كسيارات! تحتاج إلى الصيانة الدائمة وإلا اهترأت وصارت غير صالحة للاستخدام!

لا أعلم لماذا أقول هذا الكلام الآن!

أنت الوحيد الذي أردّ عليه...

لأنني أعتبرك أخي ولك مكانة كبيرة في قلبي...

كلماتك لوصف حالتي دقيقة جدّاً!

فعلاً هذا بالضبط التفسير المناسب للحالة الهابطة التي أعيشها رغماً عني...



صديقي، هل تصدقني إذا قلت لك إنني تخلصت من كل صديقاتي؟ ليس لدي صديقات، تركت الجميع بلا سبب...

الأهل؟ موقفهم معي أصِفه بالبرودة وعدم وجود ردود أفعال، باستثناء والدتي الطاعنة في السن ووالدي...

حياتي اليومية؟ نوم، فقدان شهية، إرهاق عام، والساعة السادسة مساءً أذهب إلى جلسة الغسيل لمدة ٤ ساعات متعبة، أعود إلى البيت الساعة الحادية عشرة ليلاً، وأنام كالقتيلة...

أعيش بملحق خارجي في بيت الوالد...

روتين قاتل.... حياة رتيبة.... عجوز في جسد بنت...

ولكن يا صديقي ما هي الفرصة الأخرى التي تعنيها؟ لم أفهم.... هل تقصد العلاج في الخارج؟

تعبت من كثرة العمليات والفحوص المؤلمة... لا أستطيع ترك طفليّ ولا أريد ذلك... العلاج بحدّ ذاته غير مضمون، وإن كان كذلك فهو مؤلم قبل العملية وخلالها وبعدها أيضاً.... والأدوية بعد العملية آثارها الجانبية جرّبتها وعانيت منها ومازلت أعاني...

شكراً جزيلاً لاهتمامك بي وسؤالك عني...

لماذا أنت الوحيد الذي لا أستطيع تجاهله؟





لم يعلم كيف لوّثت الدماء أنامله، لكنه كان مدركاً أنها تخص جثث أولئك الأطفال التعساء!

حاول إزالة الدماء الدبقة عن أصابعه، وعندما لم يفلح تجاهلها متناولاً سيجارة من علبة «مارلبورو» حمراء، باحثاً باليد الأخرى عن القداحة الرخيصة التي وضعها بجواره...

- أرجوك!

لم يجفل...

نظر ببرودة عُظمى صوب تلك الطفلة شبه العارية، وأطال النظر...

كان يفكر بأنها إما ملاك وإما شبح، ثم فكر أنها قد تكون شيطان غواية...



انتزع السيجارة من فمه، وبصق جانباً قبيل تساؤله بكدر:

- هل أنتِ بخير؟

هزّت برأسها إيجاباً كالتائهة، فنهض مستخرجاً هاتفه النقال من جيبه، كان ملطخاً هو الآخر بالدم، لكن الطفلة لم تجفل ولم تتراجع...

ناولها الهاتف وهو يسألها:

- ما اسمكِ؟

- أريج...

وأخيراً وجدها!

تنهّد بحرارة عميقة، كمن وجد الواحة بعد رحلة مرهقة عبر الصحراء... ثم همس شارداً:

- اسمعي يا أريج، أريدكِ أن تخرجي للاختباء في الحديقة، اسمعيني جيداً وكفّي عن رمقي ببلاهة! أعلم أنَّك عانيت الكثير، لكنك ستتمكنين من رؤية والدتك إذا نفّذتِ ما أقوله بحذافيره!

ترقرق الدمع الطفولي البريء في عينيها أخيراً، لكنها منحته آذاناً مصغية...

حاول أن يقلل مقدار الخشونة في صوته لما قال بشيء من عجلة:

- تخرجين إلى الحديقة وتجدين مكاناً مناسباً للاختباء، الأفضل



أن يكون قريباً من البوابة، وعندما يأتي الحارس إلى الڤيلا تهربين منها لأنها مفتوحة...

- ولماذا سيأتي الحارس؟

- لا تقلقي، المهم أنك بعد أن تصيري خارج أسوار الڤيلا ستتصلين على هذا الرقم بشاب يدعى «إحسان»، تعرفين كيفية استخدام المحمول أليس كذلك؟»

هزّت برأسها «نعم»، فواصل التفسير وهو يدسّ المحمول في يدها:

- الرقم مسجل بالاسم، تتصلين به وتخبرينه بأن «دكاك» أرسلكِ، وأنك بالقرب من البوابة، عندئذ ستحضر سيارة نصف نقل خضراء اللون لتقلّك إلى منزلك... فهمتِ؟

عاودت هز رأسها، فدفعها بشيء من خشونة قائلاً:

- انطلقي!

راقبها بحرص وهي تركض حتى تأكَّد من خروجها، ثم عاود دس السيجارة بين شفتيه، وأشعلها بقداحته... لم تكن عملية ذات ملامح معقّدة وصعبة التطبيق، وكان «دكاك» بانتظار رؤية النتيجة بشغف...

رمق الساعة قبل أن تعلو وجهه علائم التعجب... فشمّر عن رسغه ليطالع التاريخ الذي رسمه هناك بخط أحمر عريض: ٢ كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٠.

اليوم هو يوم ميلاده!

أفلتت منه ضحكة، ثم أخرج ببطء تلك الشمعة الصغيرة التي لا تفارق جيبه. الجميع الآن يمشون بشمعات مماثلة في جيوبهم، حتى أولئك الذين تأتي أيام مواليدهم بعد شهور!

أشعل الشمعة، ورمقها ساهماً قبل أن يغمض جفنيه...

ثم تركها تفلت من بين أصابعه لتسقط على الوقود المسكوب!

* * *

فيما بعد:

ستطلق «أريج» لساقيها العنان بعد أن يهرول الحارس الأعور صوب الڤيلا المحترقة وهو يعوي كالقيوط...

ستجري ذاك الاتصال، لتظهر على إثره سيارة خضراء نصف نقل لتقلّها إلى بر الأمان...

ستبكيها والدتها الممرضة اللطيفة أياماً وأشهراً وسنين، وهي تُدخلها وتُخرجها من مستشفى إلى آخر...

ستنتابها مشاعر الفزع وهي تصرخ، ستضحك وتنوح كالمجانين، وسيؤدي هذا التضارب في مشاعرها إلى إحساسها بالعجز والاستسلام...



ستنحدر في أعماق مشاعر العجز وقلة الحيلة، سينتابها العجز المعنوي والجسدي فلا تقوى على مواجهة أحد، وتضارب مشاعرها هو ما سيمنعها من الانتحار عندما تكبر قليلاً...

ستصاب بعقدة الإحساس بالذنب، وذلك بسبب مشاعرها العدائية إزاء كل من حولها، ثم ينتصر إحساسها بالظلم ويتفاقم غضبها متخذاً تصرفات هوجاء، ستجتاحها الحيرة والارتباك، وستمرض كثيراً وتنغلق على نفسها كارهة كل ما يمتّ بصلة إلى هذا العالم الكريه...

سترى نفسها في كوابيس لا حصر لها، ضائعةً تماماً ومضطربة كلياً، ستنحصر كلها في أشباح صديقاتها اللواتي قضين صغيرات، وستظل تبكي وتبكي حتى تجف ينابيع الدموع في مقلتيها...

ستهدأ وتتماثل للشفاء بعد سنوات عديدة، وستواصل دراستها بعزم لتتخرج من كلية الفنون الجميلة، من دون الالتفات إلى مستقبل مجهول يسمونه «السعادة الزوجية»...

ستلتقي شاباً لطيفاً يغيّر لها ذلك المفهوم الكالح، وستخبره بقصتها وهي شبه موقنة من أنه سينبذها، لكنه يطلب يدها عوضاً عن ذلك...



سيتزوجان وهي لا تزال خائفة من الفرح، ومن ليلة العمر، لكن معاملته الملائكية ومعاشرته اللطيفة لها ستنسيانها الكثير ممّا عانته...

ستنجب طفلة جميلة، وستسميها «جميلة» على اسم صديقتها الصغيرة التي قضت نحبها في ڤيلا الرعب، فهي لم ولن تنساها أبداً...

ستبدأ بتقبّل هدايا الحياة التي تبدّت وكأنها تعتذر لها عن الإساءة السابقة، وستتقبل الاعتذار بأريحية، شرط ألا ينال الطفلة ـ وكل أطفال العالم ـ مصاب كمصابها، فلا تعدها الحياة بشيء...

ستوقف شعورها بالدونية والعزلة والبعد عن كل ما يمكن أن يسبب لها الأذى النفسي، وستبدأ علاقات اجتماعية مرضية مع جاراتها لأجل طفلتها وزوجها الحبيبين...

ستكبر الطفلة قليلاً متعلمة نطق كلمة «ماما»، ثم ستكبر أكثر حتى تصير مؤهلة لدخول الحضانة ومن ثم المدرسة الابتدائية...

وذات ليلة...

ستدخل الطفلة مرسم والدتها العاكفة على تغليف بعض من لوحاتها الجاهزة استعداداً لنقلها إلى «البينالي غاليري»، فيقع بصرها على لوحة مرسومة بالألوان الزيتية، الأبيض والأسود والرمادي، تمثّل شخصاً حزيناً يجلس على أريكة، متشحاً بالسواد وبيده سيجارة يتصاعد دخانها بسريالية...



ستسأل والدتها بفضول:

ـ من هذا يا ماما؟ إنه لا يشبه بابا!

ستتوقف «أريج» عما تقوم به، وتدنو ببطء ورهبة لتقف وراء ابنتها وتطوّق عنقها بذراعيها، هامسة في أذنها بتهدّج:

ـ هذا... هو بطلي!



والد «دكاك» يطالع النافذة بنظرات شاخصة من غرفته في المستشفى...

لم يلحظ دخول أحدهم، كان الطبيب «وسيم»، صديق ولده الأعز...

- كيف أصبحت اليوم يا عمَّاه؟

أخيراً تنبّه، فأدار رأسه تجاه الطبيب متسائلاً بسحنة واجمة:

ـ ألم يعد «دكاك» بعد؟

- هل مللت منَّا بهذه السرعة؟ إننا...

طالعه الأب قائلاً بحدقتين جامدتين مدمدماً بعبوس:

- وفّر عليّ تلك الترهات وأخبرني...



شعر «وسيم» بالارتباك، فهرش مؤخر عنقه مغمغماً:

- أخبرك بماذا؟

- «هل نجح دكاك في مهمته؟»

تسمّر «وسيم» متسائلاً بحيرة حقيقية:

- مهمته؟! ماذا تقصد يا عمَّاه؟!

- أقصد...

الممرضة الشابَّة تدلف بطريقة أقرب للاقتحام... تلك التي اعتادت إجراء فحوص الضغط والسكري لوالد «دكاك»!

تجاهلت تماماً وجود «وسيم»، وهي تنكبّ على يد المريض العجوز منهالة عليها تقبيلاً، وبالكاد تمكن الرجل من سحب يده مدمدماً بامتعاض:

ـ أستغفر الله يا بنيتي!

ـ أشكرك يا عماه، أشكرك بكل جوارحي!!

نظر إليهما «وسيم» شاعراً بأن الحيرة تكاد تسلبه عقله، فهتف محتدّاً:

- ماذا يحدث بحق الله؟!

تلفتت إليه الممرضة بمقلتين غارقتين بالدمع، قائلة بصوت متهدّج من فرط التأثر:



- العم وفى بوعده لي يا دكتور! فقد تمنى يوم ميلاده أن يتمكن ولده «دكاك» من العثور على ابنتي وإرجاعها إليّ سليمة!

واليوم، اليوم فقط عادت إليّ، فهل تلومني على شكره؟!

حدَّق «وسيم» في ملامح العجوز الغائرة متنهداً تنهيدة فاهمٍ... وبهمّ أنصت إليه وهو يقول متبسّماً بوهن:

ـ ولدي الأحمق ملأ حياته بالطيش والمغامرات الهوجاء، أحياناً يُشعرني أن ذلك كل ما يملكه! لكن نظرة الإنسان يجب أن تختلف لما يملكه، يجب أن يترك طمعه يبتعد عن طريق اكتشافه للجمال والنقاء في دنيانا التعيسة...

ثم أشار بإبهامه إلى حيث يرقد زميل غرفته الغائب عن الوعي هامساً بأسى:

ـ كنت أنوي استخدام أمنيتي في إيقاظ هذا البائس! لكن رعب تلك الأم على ابنتها كان مؤرقاً لدرجة لا تصدق، وبصراحة كان الاختيار صعباً للغاية، وأتمنى أن أكون قد وُفّقت في اختياري، وليسامحني الله إن لم يكن صائباً!

أعترف بأن ثمة قدراً غير هين من الأنانية في أمنيتي، وتلك الأنانية تتعلق بولدي «دكاك»! إذ سأموت وأنا واثق من أنه قام بعمل واحد طيب على الأقل في حياته الحمقاء!



- بالإذن يا عماه...

وانسحب الطبيب «وسيم» مجاهداً بألا ينهار أمام المريض العجوز...

فما إن صار خارج الحجرة، حتى ارتكن إلى الجدار مطلقاً العنان لدموعه وبسخاء عجيب!

كان يردد دونما توقف وهو يلكم الجدار بقبضته:

- لم تكن حياته كذلك! لم تكن كذلك!

* * *

رسائل نصية مرسلة لم يتّم الرد عليها:

السلام عليكم...

صديقي الغالي... أول شيء طمنّي عن الوالد؟ كيف حاله الآن؟

والله لم أنسه بالدعاء حتى وأنا في قمة ألمي ومعاناتي...

الله «يشفيه» ويخفف عنه...

«طمنّي عنه»...

صديقي، الآن سوف أخبرك بكل شيء بالتفصيل...

لماذا؟



لأنك أخي وصديقي الذي يهمه أمري...

هل تعلم أنني لا أتواصل مع أحد؟ حتى مع إخواني وأخواتي؟

باستثناء أمي التي أكلمها بالتلفون فقط...

هل تودّ سماع التفاصيل المملة يا صديقي؟

سوف أخصك أنت فقط بهذا...

وآسفة مقدماً على إقحامك في أمور قد لا ترغب في معرفتها...

لكن لا أعلم لماذا أتتني الرغبة فجأةً في إخبارك بكل شيء... أنت فقط ولا أحد غيرك!

صديقي وأخي الغالي...

في ليلة الجمعة بتاريخ ٢-١٢-٢٠١٠

كنت في الصباح خضعت لجلسة تعذيب ـ جلسة غسيل بلازما عانيت الأمرّين من خلالها ـ.... كاد قلبي يتوقف!

طبعاً هذا غير السم الذي يسمونه «Tymo»

رضيت بحكم الله، ولو أن الدكتور يقول إن عملية استئصال الكلية أفضل من الخضوع لهذا كلّه...

يومها سمحوا لي بالذهاب إلى البيت، شرط لبس القناع الواقي، والتعقيم المستمر، والعزلة عن الناس، وعدم لمس أي مخلوق حي...



فرحت فقط لعلمي أنني وأخيراً سوف أرى عمر وأسماء...

لا أعلم كيف وصلت إلى البيت...

كيف تمكنت من قيادة السيارة؟

الله سبحانه هو الذي أوصلني!

في الليلة نفسها تلقيت اتصالاً من المستشفى...

هناك كلية جديدة! وعملية الزرع ستتم في الصباح الباكر!

تعالي الآن!

ترددت، وترددت...

ثم صليت استخارةً...

توكلت على الله...

ذهبت إلى المستشفى...

في الصباح جهّزوني للعملية...

كان صباح يوم جمعة...

استأذنتُ للاغتسال...

صديقي، كنت أغتسل اغتسال النبي صلى الله عليه وسلم...

وكنت أحس بيني وبين نفسي أن هذا آخر اغتسال لي في الدنيا!



قرأت سورة الكهف...

قرأت دعاء الاستخارة مرة أخرى...

توكلت على الله...

أخذوني إلى غرفة العمليات...

أو كما هو مدوّن عليها Theatre Room

الغرفة نفسها منذ آخر عملية...

الفلاشات والأضواء المرعبة...

الأدوات القاسية...

السرير الحديدي...

ها قد وصل رئيس مركز الزرع وأكبر دكتور!

أماني.... لِمَ السكوت؟ تكلمي؟

توكلتُ على الله...

الكمام المخدر.... رائحة الموت!

استيقظت في غرفة الإفاقة... أرى أمي وأختي تسجدان على الأرض! سبحان الله!

اشتغلت الكلية!

الحمد لله يا رب!!



لا أستطيع التنفس!

قلبي يكاد يتوقف من قسوة البنج!

عانيت في أول خمسة أيام!

لكن معاناتي هذه أفضل مليون مرة من الغسيل الدموي...

صديقي... الحمد لله... العملية نجحت هذه المرة!

أعجز عن شكر الله!

God is great *إلى الآن أتذكر الممرضة وهي تحمل كيس البول لتُفرغه في الحمام ـ ومكرم السامع ـ لا أعلم ما هو الإحساس الذي أحسست به وهي تقول:*

God is great *كلمة ممكن نسمعها كل يوم!*

لكن أن تحس بها...

هذا شيء آخر!

شعوري بعجزي عن شكر الله سبحانه وتعالى...

صديقي... أنا كنت أخضع للغسيل الكلوي لسنتين...

كنت شبه ميتة...

بين لحظة وأخرى الله سبحانه وتعالى أكرمني بأعظم نعمة!

لا إله إلا الله!

أتعلم ما الغريب حقّاً بشأن ذلك المتوفى الذي صارت كليته جزءاً مني؟

الممرضة أخبرتني أنهم جلبوه إلى المستشفى والشياط يتصاعد منه!

كان محترقاً! وقد مات متأثراً بحروقه... يا لها من نهاية أليمة!

الأعجب أنه كان بكلية واحدة فحسب!

سبحان الله! سبحان الله!

صديقي... لم أخبر أحداً بهذا كلّه...

ولا أحد يعلم بعملية الزرع إلا عائلتي المقربة جداً... وأنت!

إلى الآن أعاني من آثار العملية...

ألم ومضاعفات، وخصوصاً أنني خضعتُ لعمليتين خلال أقل من عشرين يوماً، ما أرهق جسدي...

إلى هذه اللحظة أعاني من الآلام المبرحة...

لكن مع وجود الأمل بحياة أفضل بإذن الله...

بفضل ربي عز وجلّ، الحمد لله! تخلصت من جلسات الغسيل التي لازمتني منذ تاريخ ٣١-٤-٢٠٠٩

لا تعلم مدى فرحتي يا أخي وصديقي...



أعذرني لعدم مقدرتي على التواصل أحياناً...

جسمي متورم، وجرح العمليتين، والآثار الجانبية لمجموعة الأدوية المخيفة التي آخذها الآن، والفحوص المستمرة...

لكن الخبر السعيد أنني بين ولديّ ـ بدون لمس ـ، ومن مسافة لا تقل عن متر!

الحمد لله.... الذي حصل معي له تعريف واحد فقط: معجزة إلهية!

آسفة على التفاصيل المملة وعلى الإطالة...

أرجو أن أسمع عنك قريباً جداً...

السلام عليكم

افتقدتك صديقي... ترى لِمَ لا ترد؟

كان الله بعونك أينما كنت...

صديقي... أعلم أنك سوف تطير من الفرح لسماع هذا الخبر المعجزة...

والله بالرغم من الآلام المبرحة التي أعاني منها، أعتبرها نعمة من الله عز وجلّ الذي خلَّصني من الغسيل، وأكرمني بعملية زرع للمرة الثانية...



لكن جسدي منهك جداً جداً جداً، بسبب خضوعي لعمليتين خلال ٢٠ يوماً، وكذلك بسبب الكم الهائل من الأدوية التي أتناولها...

يا ربي لك الحمد والشكر...

صديقي، أنا كذلك مرّت عليّ لحظات كنت أحس فيها بأن روحي سوف تخرج من جسدي من شدة الاختناق وضيق التنفس وسرعة ضربات القلب...

كنت أحس أن قلبي سوف يتوقف في أي لحظة، وكم مرة تلفظت بالشهادتين...

شممت رائحة الموت فعلياً لا مجازياً...

كانت ٥ ثوانٍ...

لكن بفضل الله عاد التنفس شبه طبيعي...

لكن لم تقل لي...

كيف حال الوالد؟

أتمنى أن يمنَّ الله عليه بالشفاء العاجل...

والله لم أنسه بالدعاء...

أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفي والدك يا صديقي...



ترى لِمَ لا تردّ؟

وفي عالم لا يمتُّ إلى عالمنا بأدنى صلة:

سيقف «دكاك» وحيداً... يرمق المملكة السماوية الشاسعة بحسرة وألم، فوق أرض وثيرة كالوسائد ليست بأرضنا...

سيرمق الجمال الربّاني الذي لم يخلق للخطاة بيأس، قبل أن يقترب منه الكائن الجميل الذي يشع بنور ملائكي ناصع البياض...

ثمة ما هو مألوف بشأن ذلك الكائن... إذ كان ذا شعر أشقر قصير وناعم جداً، تتخلله خصلة رفيعة فضية اللون، ووجهه مبيضّ ومتشرّب بحمرة خفيفة منعشة، زيّنته عينان شفافتان حالمتان، وأنف دقيق كأنه شُكّل بعناية داخل قالب، ثم الثغر، ذاك الثغر المزيَّن بشفتين ورديتين متلألئتين!

ماذا كان يرتدي؟ ربما كان يرتدي حلماً! بل كان عبارة عن ضوء أبيض، يكاد يماثل لون عنقه الطويل لولا تلك الحمرة الآسرة لبشرته...

سيسأله برقّة وحزن:

« لِمَ صنعت ما صنعت؟

لِمَ أحرقت الخلق ولا يحرقهم إلا الخالق؟

لِمَ أحرقت الخلق ومنهم صغار أبرياء ما زالوا على قيد الحياة؟



لِمَ سرقت؟

لِمَ زنيت؟

لِمَ انتحرت؟»

ستتيبس ملامحه، وسيصاب بحالة عجيبة هي مزيج من الألم والغثيان والهلع... لم يتوقع بتاتاً وجود صغار على قيد الحياة عقب الرعب الذي شاهده!

ستنحدر دموعه كزخّ المطر وهو يتساءل بدوره:

«أهم بخير؟ أعني الأطفال؟»

«يمرحون في الرياض خالدين مخلّدين...»

«وماذا عن المجرمين؟»

«يتعذبون إلى الأبد في أسفل سافلين!»

«ماذا عن الشيطان؟!»

«قد يطول أجله بسبب أمنيته الرعناء، لكنه حكم على نفسه بالشقاء الأزلي، وسيحين أجله كبقية المخلوقات يوماً ما، عندئذ سيكون عقابه وخيماً!»

سيتنهد مكفكفاً دموعه، وفي سرّه سيحمد الله...

ثم سيترك ذلك الكائن الجميل يقتاده إلى حيث يلقى مصيره الأزلي................



صدر للكاتب وائل رداد:

رواية: «مذكرات الجرذان الغريقة» عن دار ممدوح عدوان – سوريا

رواية: «سيمفونية وادي الظلال» عن سندباد للإعلام والنشر – مصر

رواية: «موت سريري» عن دار أكتب - مصر

رواية: «جنازة الملائكة» عن دار رواية – السعودية

روايات:

«المصعد رقم٧» ج١

«التابع الحارس» ج٢



«الهائمون» ج٣

«مندوب الشيطان»

«ملاك جهنمي»

عن دار بلاتينيوم بوك ـ الكويت

E Mail: waelnovel@gmail.com